

الإعجاز القرآني والتقدم العلمي

رؤية معاصرة

محمد العفيفي

إذاعة الكويت

(١)

متصلة بموضعها من آية قرآنية بذاتها ، بينما هي ترتبط كذلك بترتيب تفصيلي ، حين تندبرها بمواضعها المتفرقة في ثنايا العديد من الآيات والسور .

وسنرى في الوقت نفسه ، أن هذا النظم القرآني المعجز ، يحمل معه منهج الترتيب في السموات والأرض وما بينهما فانت لا تقع عينك على مشهد من مشاهد الكون والحياة ، إلا أعطاك ترتيباً ، عاماً ، من حيث ارتباط أجزائه ببعضها ببعض ، بينما كل جزء من أجزائه له ترتيبه التفصيلي ، الذي يربطه بمواضع تنوعه وتكاثره ، على تفرق هذه المواضع ، وامتدادها في الزمان والمكان .

إعجاز القرآن الكريم ، وثيق الصلة بالتقدم العلمي ، بكافة أنواعه وسائر آفاقه ، وكل أحواله .

وأقرب لمحة لبيان هذه الحقيقة ، نجدها في نظم القرآن وترتيب آياته .

فنظم القرآن وترتيب آياته هو أهم حقائق إعجازه

والترتيب هو أعم حقائق العلوم كلها ، وأكثرها ارتباطاً بسائر المعارف الإنسانية .

فنحن لا نستطيع معرفة حقيقة علمية ، إلا إذا رتبناها بين غيرها من الحقائق ، ورددنا كل جزء من أجزائها إلى أصوله العامة التي ينتمي إليها .

وسنرى أن كل كلمة من كلمات القرآن ، ترتبط بترتيب عام ، حين نجدها

بل إننا سنجد — مع ذلك — أن السنة النبوية بكل مكوناتها من أقوال النبي وأعماله وإقراراته ، منسجمة مع هذا النظم القرآني ، كما يقول الشاطبي في الموافقات « ترك القرآن موضعا للسنة ، وتركت السنة موضعا للقرآن » (١)

ولقد تنوعت بحوث الرواد الأوائل في نظم القرآن ، فمنهم من تكلم عن الحروف في اجتماعها وتفرقها ، ومنهم من تكلم عن الكلمات ، ومنهم من تكلم عن الجمل ، وقليل منهم ربط بين هذه التراكيب وبين السنن النبوية ، والسنن الكونية (٢)

ذلك أن النبي ﷺ ، قد علم صحابته الأبرار ، الفرق الواضح بين ترتيب آيات القرآن ، وبين فهم معانيها والعمل بمضامينها ، حيث لم يكونوا ينتقلون من آية إلى غيرها ، حتى يتعلموا مافيه من العلم والعمل .

فحيثما نزلت آيات القرآن متفرقة ، كان لنزولها ترتيب موافق لبناء الحياة الإسلامية ، بكافة مقوماتها ، السياسية والاقتصادية ، والعسكرية والاجتماعية والعملية ، وغير ذلك .

ثم جاء بعد ذلك ، ترتيب الجمع الذي يقول عنه الله تعالى « إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه »

١٧ — ١٨ : القيامة

كما اقترن بذلك ترتيب السنة في اتباعها للقرآن ، وعملها بمقتضاه ، كما يقول الله تعالى « ثم إن علينا بيانه » « كلا بل

تحبون العاجلة » « وتلدرون الآخرة » ١٩ — ٢٠ — ٢١ : القيامة

فاتباع النبي للقرآن ، فيه اتباع لترتيبه من جهة ، واتباع لمعانيه ، من جهة أخرى ، وتحويل هذين معا إلى بناء علمي وعمل جامعي ، له حركة ممتدة من الدنيا إلى الآخرة ، كما رأينا في هذه الآيات السابقة .

ولقد جعل الله للسنة نصيبها الأوفى في ترتيب آيات القرآن في سورها ، ثم ترتيب السور على النحو الذي عمل الصحابة بمقتضاه ، حين جمعوا القرآن في المصحف .

ففي حديث عثمان بن أبي العاص قال : « كنت جالسا عند النبي ﷺ ، إذ شخص بصره ، ثم صوبه ، ثم قال : أتاني جبريل آتفا فأمرني أن أضع هذه الآية ، بهذا الموضع ، من هذه السورة . (٣X٤) » « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى »

٩٠ : النحل

فهذا كله ، مما يبين عمق ارتباط السنة بترتيب القرآن وترتيبه ، على هذا النحو الذي يقوم إعجازه ، على الوصل بين الجوانب اللغوية والكمية ، في حقيقة واحدة جامعة .

فالجانب اللغوي يقوم على التحكم في الوصل والفصل ، لكل ما في القرآن من حروف وكلمات وجمل ، وهي كل مكونات الكلام ، ويقابلها تكوين المجتمع

من أفراد ، والأفراد من أجزائها ، في آيات الله الكونية .

والجانب الكمي ، يقوم على تقدير عدد المواضع التي تخص كل حرف أو كلمة أو جملة في ارتباطه بآية ، أو تفرقه بمواضع متعددة في الآيات والسور .

والسنن الكونية ، وثيقة الصلة بهذا الترابط ، بين الحقائق الوصفية والحقائق الكمية ، فكل شيء عند الله تعالى بمقدار ، وعلى التقدير الكمي ، تظهر لنا صفات كل شيء ، وتتجلى حقائقه العلمية ، ومنافعه العملية .

السبع المثاني مفاتيح كل العلوم

والذي يواصل التدبر لهذا النظم القرآني ، يجده يقوم على سبعة من التراكيب ، هي أساس السبع المثاني ، كما جاء ذكرها في القرآن والسنة .

وهذا بيانها على سبيل الإجمال .

ثم يأتي في نهاية هذا البحث ، بعون الله ، شرح مجالات تأثيرها العلمي والعملية ، في كل العلوم ، وسائر أنواع الحقائق .

٢ — الآية القرآنية في الموضع الواحد

مثل قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك

نستعين » ٥ : الفاتحة

وقوله : « ذلك الكتاب لا ريب فيه

هدى للمتقين » ٢ : البقرة

٢ — الآية القرآنية في المواضع المتعددة

مثل قوله تعالى : « فبأي آلاء ربكما

تكذبان » سورة الرحمن

٣ — الجملة القرآنية في المواضع المتعددة

مثل قوله تعالى : ١ — « أفلا يتدبرون

القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » ٨٢ : النساء

وقوله : ٢ — « أفلا يتدبرون القرآن أم

على قلوب أقفالها » ٢٤ : محمد

٤ — الكلمة القرآنية في الموضع الواحد

مثل قوله تعالى : « فمنهم شقي

وسعيد » ١٠٥ : هود

فقد جاءت كلمة (شقي) بموضع

واحد في القرآن كله ، ومثلها كلمة

(سعيد) وسنرى (بعد ذلك) أن تعدد

المواضع أو تفردها ، له شأنه العظيم في نظم

آيات الله القرآنية ، ثم نظم آيات الله الكونية .

٥ — الكلمة القرآنية في المواضع المتعددة

مثل قوله تعالى : « ولقد آتيناك سبعاً

من المثاني والقرآن العظيم » ٨٧ : الحجر

وقوله : « وبينا لوفئك سبعاً شداداً »

١٢ : النبأ

فكلمة (سبعاً) كلمة واحدة من حيث

نصها ، ولكن لها ارتباطاً بمشهد جديد ، مع

كل موضع من موضعها .

٦ — الحرف القرآني في الموضع الواحد

مثل حرف الصاد بقوله تعالى : « ص

والقرآن ذي الذكر » ١ : ص

وقوله تعالى : « ق والقرآن المجيد »

١ : ق

وقوله تعالى : « ن والقلم وما

يسطرون » ١ : القلم

وستأتي تفصيلات كثيرة ، فيما يخص
هذه الحروف ، في ثنايا هذا البحث

٧ - الحروف القرآني في المواضع المتعددة

مثل واو العطف بالآيات الأوائل ، من
سورة (ص) وسورة ق وسورة القلم .

هذه هي التراكيب السبعة التي يظهر
معها نظم القرآن الكريم .

وسنجد مع مواصلة قراءتنا لهذا
البحث ، أن كل ما في القرآن من جملة على
مستوى آية أو أقل من آية ، أو كلمة ، أو
حرف ، لها في تعدد مواضعها أو تفرداها ،
حكمة بالغة ، تنطوي على كل قوانين
البحث العلمي ، في آيات الله الكونية
وتراكيبها وترتيب أجزائها .

ونخص بالذكر هنا ثلاث قواعد أساسية ،
أولها : ثبات المكونات الأساسية ، في
نصوص القرآن كما سبق بيانها ، ثم ثبات
المكونات الأساسية لآيات الله الكونية ،
سواء نظرنا إلى المجتمعات وكيف تتكون من
أفرادها ، أو نظرنا إلى الأفراد وكيف يتكون
كل نوع منها من أجزائه .

والمقصود بالثبات ، نفي التبديل
والغير .

وثانيهما : اقتران الحركة لأي نص قرآني ،
يتجدد المشاهد ، وزيادة وجوه العلم ، على
قدر عدد المواضع .

وكذلك الشأن في كل نوع من أنواع
آيات الله الكونية ، فالماء واحد من حيث
ثباته على نوعه وتركيبه ، وترتيب مكوناته ،

ولكنه في تجمعه وتفرقه ، تتجدد منافعه
وتزداد ، على قدر مواضع حركته في آفاق
الوجود .

وثالثها : ترتيب أي نص قرآني ، من حيث
توالي حركته ، في مواضعه على قدر
تعددتها .

وكذلك نجد أنواع الخلق يتوسط بعضها
بعضا ، ويتفرق بعضها في ثنايا بعض ،
ولكل نوع منها مع ذلك ، ترتيب وجوده
الذاتي ، كما يتوالى غرس كل نوع من
الشجر ، ولا بد مع ذلك من ترتيب
لتكاثره ، يتوالى في الزمان والمكان^(٥)
ثم إن هذه التراكيب السبعة ، لها دليلها
النقلي ، في القرآن والسنة .

يقول الله تعالى : « ولقد آتيناك سبعا
من المثالي والقرآن العظيم » ٨٧ : الحجر
ويقول سبحانه :

« الله نزل أحسن الحديث كتابا
متشابها مثالي » ٢٣ : الزمر
ثم إن النبي ﷺ ، يقول : السبع
المثالي ، فاتحة الكتاب^(٦)

وأخرج بن جرير عن ابن عباس أنه
قال : المثالي ما ثني من القرآن (٦) ألم تسمع
لقول الله « الله نزل أحسن الحديث كتابا
متشابها مثالي » ٢٣ : الزمر

وأخرج بن جرير عن الضحاك أنه قال :
المثالي القرآن يذكر القصة الواحدة مرارا^(٧)
إننا حين ننظر الى الموضعين القرآنيين ،
اللذين جاءت فيهما كلمة « المثالي » وكلمة
« مثالي » ، نجد كل موضع منهما قد

وصلنا في سياقه ، بحقيقة خاصة به
فسورة الحجر أشارت بطريقة مجملة ، إلى
أن فاتحة الكتاب هي « السبع المثاني » ،
وهكذا ارتبط الحديث النبوي الذي مر بنا
آنفاً ، بهذه الحقيقة القرآنية المجللة ، ففسرها
بما يؤكد أن الفاتحة ، هي السبع المثاني أما
الآية التي جاءت بها كلمة (مثاني) في
سورة الزمر ، فقد وصلتنا بحقيقة جديدة ،
هي أن المواضع المتعددة ، لكل آية وأجزائها

في القرآن ، تتشابه علينا ، ولكنها لا تتكرر
هذا التكرار الجامد الذي نعهده في كلامنا
البشري ، بل هي تتجدد معها تراكيب
النص الواحد وترتيبه ، بحيث يتسلسل بها
ترتيب تفصيلي يخصها ويصلها بألوان من
العلم ، بعدد مواضعها في القرآن كله .
وقد أكدت السنة المطهرة هذه الحقيقة ،
التي يجدها في القرآن ، كله من تدبره
تدبراً ، عملياً ، حيث أشار ابن عباس ، إلى
أن المثاني ، هي ما نُثني من القرآن ، أي ما
تعددت مواضعه ، ثم استشهد بآية سورة
الزمر .

فهناك تنوع مترابط لبيان الحقيقة
الواحدة ، حين نجدها في القرآن ، ثم في
حديث النبي ﷺ ، ثم في كلام صحابيه
مثل ابن عباس ، ثم يتصل هذا التنوع ،
حتى نجد الضحاك يبين لنا أن المثاني هي
القصة الواحدة ، يذكرها القرآن مراراً .
إن هذا التأثير العلمي القرآني المتجدد ،
يحمل الحقيقة الواحدة ، فيضعها في مواضع

متوالية من المكان والزمان ، والرؤى
والمشاهد ، والمجتمعات والأفراد ، فإذا
الحقيقة في ذاتها لها شأنها ، وإذا حركتها
وتفاعلها العملي ، بالمجالات المناسبة لذلك ،
زيادات لها حسابها ولها تقديرها ، ولها دورها
البناء في الحياة الإسلامية إلى أن تقوم
الساعة ، فيسعد المتبعون للقرآن ، ويشقى
المخالفون له (٨) (٩)

من هنا كان علينا ، أن ننظر في نصوص
القرآن في ذاتها ، ثم ننظر في نصوص القرآن
من حيث ارتباطها بمواضعها المتعددة في
القرآن كله ، لتتلقى هذا الدور القرآني ،
العملي ، فتتعلم كيف نبحت في الحقائق
الذاتية لكل أشياء الوجود من الذرة إلى
المجرة ، وكيف نعرف كل شيء في ذاته ، ثم
نعرفه في ارتباطه بغيره ، حيث تتنوع
التراكيب والترتيب ، والنتائج التي تحققها
هذه الحركة الدائبة ، في هذه المخلوقات
الكثيرة ، التي أبدعها الله رب العالمين (١٠)

والفوائد التي نحصل عليها من هذه
الحقائق ، التي يدور عليها هذا البحث فوائد
كثيرة ، أهمها ترسيخ عقيدة التوحيد ،
وبيانها للعقول والقلوب ، المتعطشة إليها في
العالم كله .

ويكفي أن ننظر في كلام عالم
الفسولوجيا والكيمياء الحيوية الأمريكي ،
ولتر أوسكار لندبرج . ح حيث يقول :
« في جميع المنظمات الدينية المسيحية ،
تبذل المحاولات لجعل الناس يعتقدون منذ
طفولتهم في إله هو على صورة الإنسان »

ويواصل هذا العالم كلامه ، فيبين أن تركيب الكون المادي الذي نعيش فيه وترتيب أجزائه ، يشهد بوجود إله واحد لا شريك له . (١١)

ثم إن عالم الرياضيات والفيزياء لإيرل تشستر ريكس يقول : إن الظواهر العديدة التي تدل على وحدة الغرض ، في هذا الكون ، وتشير إلى نشأته والسيطرة عليه ، تبين كذلك ، انه لابد أن يتم هذا كله ، على يد إله واحد لا آلهة متعددة (١٢)

فما بالنا إذا أوضحنا لأمثال هذين العالمين الكبيرين ، وهم كثيرون جدا بين علماء العالم كله ، أن تركيب الكون المادي ، قائم على منهج التركيب والترتيب لآيات القرآن وأجزائها مع استقلال كل منها بحقيقته الخاصة به ، وأن السنن النبوية هي أداة الوصل بين معرفتنا نحن البشر ووجودنا ، وبين هذا المنهج العلمي العملي الواحد في آيات الله القرآنية ، وآياته الكونية إننا حينئذ لن نجد تفرقة بين الماديات والأخلاقيات ، ولا بين العلم النظري ، والتطبيق العملي ، وسنعود جميعا إلى فطرة الله التي فطر الناس عليها .

بل إن المسلمين أنفسهم ، سيتعلمون كيف يحتكمون إلى كتاب ربهم ، وسنة نبيهم في كل مشكلاتهم مهما تختلف هذه المشكلات .

والله ولي التوفيق .

مواضع تعريف الإعجاز الإلهي في آيات القرآن وسوره

١ — عجز الإنسان في معرفته ووجوده ما لم يتد بهدي الله

جاءت الكلمات الدالة على الإعجاز الإلهي ، في القرآن كله ، حاملة معها حقيقة العجز في إمكانات المخلوقين ، أن يتحدوا إرادة خالقهم أو أقواله وأفعاله .

١ — ونجد أول موضع يصلنا بأهم وجوه هذا التعريف القرآني حيث يقول الله تعالى : « قال ياويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي »

٣١ — المائدة

فالقرآن يبدأ ببيان عجز الإنسان أن ينتصر على دوافع الشر في نفسه ، كلما تخلى عن طاعة الله سبحانه .

وهكذا قتل قابيل أخاه هابيل ، ثم عجز أن يوارى سوءته .

وهذا متعلق بمعرفة الإنسان ، ولا مخرج للإنسان من هذا العجز ، إلا بالخضوع للأحكام التي جاء بها دين الله ، مع البراءة من كل ما يخالفها .

٢ — عجز الإنسان أن يخرج من حدود المكان والزمان .

ثم نمضي إلى موضع قرآني آخر يبين لنا عجز الإنسان ، أن يخرج من حدود وجوده في المكان والزمان ، فهما — معا — حجاب من الغيب يجعلنا بحاجة دائمة إلى الإيمان ، بما جاء به دين الله ، من حقائق الوحي في القرآن والسنة .

« إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين » . ١٣٤ — الأنعام

فالمستقبل علمه عند الله ، والماضي ننسى
منه ما ننسى ، ونذكر ما نذكر ،

٣ — حتمية انتصار الإسلام في الدنيا والآخرة

أما الموضع القرآني الثالث ، الذي يبين
لنا حقيقة جديدة من حقائق الإعجاز
الإلهي ، وأسباب العجز البشري ، فهو
حيث يقول الله تعالى :

« ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا
يعجزون »

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة »
٥٩ — ٦٠ الأنفال

فحيث سبق في الموضع الأول أن
الإنسان عاجز عن حفظ نوعه ، منساق
وراء دوافع الشر ، حتى إنه ليقتل أخاه لو لم
يكن له رادع من أوامر الله ، ونواهيه .

وحيث جاء في الموضع الثاني ، حتمية
الإيمان بكل ما جاء من عند الله ، عن
حقائق وجودنا ومصيرنا ، وانهينا في الموضع
الثالث إلى أن الذين يأبون أن يؤمنوا بالله
وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والقدر ،
ستكون لهم معارك ضد المؤمنين ، وسيكون
لهم سباق في التسليح ، ودعواى غير
صحيحة في السبق الحضاري ، فكذبهم الله
وبين أنهم لا يعجزون الله الذي خلقهم ثم
أمر عباده المؤمنين أن يعدوا لهم ، ما
استطاعوا من قوة وأن لا يظنوا أن الآخرة
تغنيهم عن طلب النصر في الدنيا والأخذ
بأسباب التقدم فيها .

٤ — عجز المشركين أن يقاوموا القوة

الإسلامية

ونصل الى الموضع الرابع حيث قول الله
سبحانه

« وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله
وبشر الذين كفروا بعذاب أليم » .

٣ — التوبة

وهنا نجد الإعجاز الإلهي ، يبين لنا عجز
المشركين أن يدفعوا عن أنفسهم عذاب الله
لهم في الدنيا بمحاربة النبي لهم بمن معه من
المؤمنين ، حتى يتوبوا عن الشرك أو يقتلوا
وهم مشركون ، فيكون عذابهم في الآخرة
أشد من عذابهم في الدنيا .

٥ — عجز المشركين أن يخرجوا من العذاب الأبدي

ثم نجد في الموضع الخامس قوله تعالى :
« ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب
الخلد هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون
ويستبين أنك أحق هو قل إي وري إنه لحق
وما أنتم بمعجزين » .

٥٢ — ٥٣ : يونس

وهنا نجد الإعجاز الإلهي مبينا للمشركين
أنهم خالدون في العذاب يوم القيامة ، لا
مفر لهم من ذلك وأن دين الله حق لا ريب
فيه ، وأنهم عاجزون عن الفرار من
مصيرهم ، إذا ماتوا على الشرك .

ففي الموضع الرابع جاء ذكر العذاب
عاما .

« وبشر الذين كفروا بعذاب أليم »

أما في الموضع الخامس فقد ذكر العذاب

خاصا بما يلقي المشركون يوم القيامة « ذوقوا عذاب الخلد »

٦ - وفي الموضع السادس نجد قوله تعالى :

« أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون »

٢٠ : هود

إن أوامر الله ترقى بالبشر من مستويات عجزهم إلى آفاق التقدم بكل أنواعه .

أما الذي ينهى الله عنه فهو حماية لنا من مفتريات أهل الباطل ، ومن موالاة أهل الشر .

فمن أطاع الله في كل ما أمر به ثم اجتنب كل ما نهى عنه فهو الذي انتفع بما يسره الله له من نعمة السمع والبصر .

أما الذي لم يأتمر بما أمر الله به ، ولم ينته عما نهى الله عنه ، فهو من الذين « ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون »

وهكذا ندرك أن الإعجاز الإلهي ، إنما هو ظاهر دائما في كل نعم الله على عباده وأن عجزهم عن طاعة الله ، هو أول ما يكشف عن استحقاتهم للعجز وتخلّفهم في كل أمورهم ابتداء من عدم استطاعتهم أن ينتفعوا بأقرب نعم الله منهم ، فهم لا يستطيعون أن يسمعوا أو يبصروا مع وجود آذانهم وأعينهم .

ولعلنا نلاحظ عظمة الترتيب القرآني ،

حيث جاء ببيان العذاب الدنيوي والأخروي بوجه عام ، في الموضع الرابع ، ثم جاء بعده الموضع الخامس بعذاب الآخرة خاصة — ثم جاء الموضع السادس بشيء جديد ، ولكنه متعلق بالمؤمنين السابقين ، وهو مضاعفة العذاب لنوع من العصاة ، الذين صاحبوا رفقاء السوء ، وعجزوا عن انتفاعهم بنعم الله عليهم ، في وحي الله حيث أمرهم ونهاهم ، فلم يستجيبوا ، وفي خلق الله ، حيث منحهم سمعا وبصرا ، فلم ينتفعوا بهما^(١٢) .

٧ - وهكذا جاء الموضع السابع بقوله تعالى :

« قالوا يانوح قد جادلنا فأكثر جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين » .

٣٢ — ٣٣ : هود

لقد جاءت هذه النقلة القرآنية الجديدة ، حاملة معها مشهدا تاريخيا يتبين لنا معه ، حدود قدرة الأنبياء وإطلاق القدرة الإلهية .

فالله هو القادر وحده على أن يأتي بما شاء فيما يشاء من الزمان والمكان .

ولقد رأينا في الموضع السادس عجز العصاة عن انتفاعهم بنعم الله عليهم لا في وحي الله ، ولا في خاصة أنفسهم ، حيث نعمة السمع ، ونعمة البصر .

فها نحن في الموضع السابع نشهد عناد البشر إذ يؤثرون هلاكهم ، على تصديقهم

بالحق الذي جاء من عند الله .

وقد كان الطوفان هو الجزء الذي استحقوه ، فإذا الماء الذي تقوم عليه حياتهم هو سبب غرقهم ، وهلاكهم ، فقد عجز البشر — أولاً — أن ينتفعوا بنعمتين في أجسامهم ، هما السمع والبصر ، ثم عجزوا — ثانياً — أن ينتفعوا بنعم الله المتصلة بالكون الذي يعيشون فيه .

٨ — كل ما في العالم من النعم فهو من الله وحده لا شريك له .

— وفي الموضع الثامن نجد قول الله تعالى :
« قالت ياويلتنا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا »

٧٢ — هود

وهكذا تتصل حلقات الإعجاز الإلهي ، حتى نجد حفظ السلالة الإنسانية وتكاثرها ، تالياً من حيث ترتيب هذا النوع من الكلمات في القرآن لحادث الطوفان ، الذي أهلك الله به قوم نوح .

فكأن الله يذكرنا أنه هو القادر على خلق الإنسان ، وتكاثر ذرية البشر ، ولو كانت الأم عجوزاً طاعنة في السن ، وكان زوجها شيخاً فانياً .

وكلمة (عجوز) تنتسب من حيث أصولها في اللغة ، إلى العجز ، الذي يزول من وجودنا البشري بمقدار ما يمنحنا الله من أنواع نعمه الدالة على الإعجاز الإلهي .

٩ — وتتصل هذه الحقائق المترابطة بالموضع التاسع لهذا النوع من كلمات القرآن ، حيث نصل إلى قوله تعالى :

« أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون * أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين * أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم »
٤٥ — ٤٦ — ٤٧ : النحل

لقد وصلنا — هنا — إلى أصحاب المذاهب الإلحادية الفاسدة وذوي المناهج الباطلة ، فالله تعالى يبين لهم عجزهم أن يتحكموا في الأرض التي أسكنهم الله فيها ، وعجزهم أن ينتفعوا بأنواع نشاطهم ، الذي يظنون أن فيه من التقدم ، ما يجعلهم في حل من العمل بدين الله والنزول على حكمه .

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما ، مفسراً قوله تعالى « أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين » .

(تقلبهم) أي اختلافهم (١٣)

والمقصود اختلاف حركتهم وأنواع نشاطهم في الدنيا ، مزهوين بما استحدثوا من البدع الصارفة لهم ، عن الدين الذي أمرهم الله باتباعه ، والاحتكام إليه .

ونلاحظ الترتيب المعجز حيث جاء التكاثر في النوع البشري ، في الموضع الثامن ، بينما جاء في الموضع التاسع ، النهي عن التكبر ، بما يستكثر الإنسان ، من متاع الدنيا ، حتى يصرفه عن طاعة ربه .

١٠ — وحي الله في القرآن مرتبط به وحيه في السنة :

وفي الموضع العاشر ثم نصل إلى قوله تعالى :

قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين
فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة
ورزق كريم * والذين سعوا في آياتنا
معاجزين أولئك أصحاب الجحيم »

٤٩ — ٥١ : الحج

إن آيات الله تشمل آيات القرآن ، وما
يبينها لنا من سنة النبي ﷺ ، كما تشمل
آيات الله الكونية ، وبذلك يعلم البشر أنهم
عاجزون عن تبديل شيء مما قدر الله لهم في
دنياهم وآخرتهم ، فالجنة لمن أطاع الله والنار
لمن عصاه . (١٤)

ولذلك اجتمع في هذا الموضع ذكر
السنة مجملة — في بيان النبي لما أوحى الله
إليه .

« إنما أنا لكم نذير مبين » وقد أُنذر
النبي الناس بالقرآن والسنة كذلك .

ثم تبع ذلك ، ذكر الجنة للصالحين من
عباد الله ، وذكر النار للذين سعوا في آيات
الله معاجزين ، أي واهمين أنهم سيغلبون
الحق بأباطيلهم ! وهذا لا يكون أبدا .

ونلاحظ الإعجاز في الترتيب ، حيث
جاء الموضع الثامن عن كثرة النوع
الإنساني ، ثم جاء الموضع التاسع ببيان
استكثار الكافرين من طيِّبات الدنيا
واستكبارهم بما يجمعون ، وبعدهم عن جادة
الحق ، بينا الموضع العاشر جاء مبينا أن
الناس جميعا في هذه القضية فريقان ، فمنهم
الصالحون ، ومنهم غير ذلك .

١١ — العمل بالقرآن والسنة وحتمية
انتصار المسلمين والتمكين لهم في الأرض :
وفي الموضع الحادي عشر نصل إلى قوله
تعالى :

« وعد الله الذين آمنوا وعملوا
الصالحات ليستخلفنهم في الأرض » إلى
قوله سبحانه « لا تحسبن الذين كفروا
معجزين في الأرض »

٥٥ — ٥٧ : النور

إن النتائج الكبرى ، لكل ما تقدم في
المواضع السابقة ، هي مجملة في استخلاص
الله للمؤمنين في الأرض ، يقيمون الصلاة ،
ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله .

ولابد حيثئذ من عجز الكافرين ، أن
ينالوا من المؤمنين شيئا وقد بدل الله ضعفهم
قوة ، وخوفهم أمنا .

والواقع العملي ، يبين لنا أن الفتوحات
الإسلامية ، ظلت موجودة دائما ، تحقيقا
لوعد الله رغم كل ما ذهب منها .
وفي السنة المطهرة تفصيل ذلك (١٥)

١٢ — الإعجاز القرآني في السبق إلى
حقائق العلوم

وفي الموضع الثاني عشر نصل إلى قوله
تعالى :

« قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ
الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله
على كل شيء قدير وما أنتم بمعجزين في
الأرض ولا في السماء وما لكم من دون
الله من ولي ولا نصير »

٢٠ — ٢١ — ٢٢ : العنكبوت

ها هنا يتصل الإعجاز الإلهي ، بقضيه جديدة ، ولكنها وثيقة الاتصال ، بما جاء في المواضع السابقة إذ أن الجديد هنا هو بيان السير في الأرض للنظر في أحوال السابقين من البشر ، ثم يبان أن البشر ليسوا معجزين في الأرض ولا في السماء .

فالكلام عن عجز البشر أن يحيطوا بحقائق الأرض والسماء ، مما يظهر معه التطور الحديث في حياتهم ، وهو أمر لم يكن معروفا أيام نزول القرآن ، وإنما تحقق بعد ذلك بزمان طويل حيث عرفنا نحن المعاصرين صناعة الطيران ، وما يسمى عصر الفضاء ، والأقمار الصناعية أو الصواريخ^(١٦)

١٣ — وهكذا نصل إلى قوله تعالى :

« وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين » .

« والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم » .

٣ — ٥ : سبأ

ومن الجديد هنا لبيان الإعجاز الإلهي ، في الإحاطة بكل ما هو أكبر أو أصغر في خلق الله ، مع إنذار الناس بيوم القيامة .

بعد ما سبق من بيان عجز البشر عن معرفة كل حقائق الأرض والسماء وبيان أن القرآن قد سبق بكشف وصولهم إلى الفضاء قبل أن يصلوا إليه فواجههم — إذن — أن

يؤمنوا بيوم القيامة — قبل أن يأتي هذا اليوم .

ونلاحظ الترتيب المعجز حيث جاء الكلام عن الفضاء في الموضع الثاني عشر بينما جاء الكلام عن يوم القيامة في الموضع الثالث عشر ، إذا الوصول إلى الفضاء غاية ما يتطلع إليه الإنسان ، في الدنيا

١٤ — الإعجاز الإلهي في كل النواحي الاقتصادية :

وفي الموضع الرابع عشر نصل إلى قوله تعالى :

« وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون * والذين يسعون في آياتنا معاجزين أولئك في العذاب محضرون »

٣٧ — ٣٨ : سبأ

ومن الجديد هنا بيان الجانب الاقتصادي بين نعم الله على الإنسان وأن الذين يستغلون هذه النعمة — في غير ما أمر الله به ولا يتعدون عما نهى الله عنه ليسوا بمنجاة من عقاب الله لهم .

١٥ — الإعجاز الإلهي وتقويمه لعلوم البشر :

وفي الموضع الخامس عشر نصل إلى قوله تعالى :

« وإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا حولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم » الى قوله تعالى « والذين ظلموا من هؤلاء

سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم
بمعجزين »

٤٩ — ٥١ : الزمر

ومن الجديد هنا بيان جهل الكثير من
الناس بحقائق الإعجاز الإلهي في كل ما
يصيب الناس من ضر أو نعمة فهم يضرعون
إلى الله بالدعاء إذا أصابهم الضر ثم يغترون
بالنعمة إذا رزقهم الله بها ظانين أنها جاءتهم
بما لديهم من العلم .

ونلاحظ الترتيب المعجز ، حيث جاء
الكلام عن المال في الموضع الرابع عشر وجاء
بيان عن جهل الانسان بحقيقة نعم الله في
الموضع الخامس عشر . وواضح أن الإنسان
لا يفكر في هذه الأمور إلا بعد تحقيقها
فلذلك سبق ذكر المال ثم تبعه من حيث
الترتيب الكلام عن معرفة نعم الله .

١٦ — الإعجاز الإلهي وتأديب العصاة :

وفي الموضع السادس عشر نصل الى
قوله تعالى :

« وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت
أيديكم ويعفو عن كثير * وما أنتم
بمعجزين في الأرض »

٣٠ — ٣١ : الشورى

ومن الجديد هنا بيان مسئولية الإنسان
عما يصيبه من المصائب وأن الله يعفو مع
ذلك عن كثير من ذنوب البشر مع كونهم
غير معجزين في الأرض ، وإنما الإعجاز
الإلهي هو الغالب عليهم ، وقد جاء ترتيب
هذا الموضع بعد ما جاء في الموضع السابق
ليكون تفصيلا له وبيانا لمسئولية الإنسان عن

أفعاله .

١٧ — حتمية العمل بالقرآن لمن أراد
السعادة في الدنيا والآخرة :

وفي الموضع السابع عشر نصل إلى قوله
تعالى :

« ومن لا يحب داعي الله فليس بمعجز في
الأرض »

٣٢ : الأحقاف

وفي هذا الموضع إشارة إلى اجتماع القرآن
والسنة ، على حمل دعوة الله إلى الناس كافة
ليدخلوا في دين الله وهو الإسلام .

فمن أي أن يجب داعي الله وهو محمد
ﷺ ، وما جاء به من عند الله فليس بمعجز
في الأرض ، وإنما هو خاضع لحكم الله عليه
في الدنيا والآخرة .

ولا رب في أن النبي ﷺ ، قد دعا
الناس بالقرآن ، والسنة معا .

وواضح أن ترتيب هذه المواضع بعد كل
ما سبق ، مناسب لجعل الدعوة قائمة في
الناس إلى يوم القيامة .

١٨ — وأخيرا ننتهي الى قوله تعالى ، حكاية
عن الجن « وأنا ظننا أن لن نعجز الله في
الأرض ولن نعجزه هربا »

١٢ — الجن

وهذا الموضع الأخير من المواضع القرآنية
التي جاء بها ذكر الإعجاز الإلهي قد تفرد
بمعجز الجن عن الحرب من الله تعالى .

فلما كان هذا النوع من الخلق ، مع ما
خصه الله به ، من القدرة على التشكل
والتحول ، عاجزا عن الحرب ، فإن البشر

أظهر عجزا ، عن مثل ذلك .

ومع بعض ما جاء في السنة عن هذه الحقائق نواصل النظر ، والتدبر

١ — الإعجاز الإلهي وحتمية الإيمان بالقدر

الحديث الأول : كل شيء بقدر حتى

العجز والكيس (١٧)

وهذا الحديث يربط بين العجز والكيس

وبين القدر .

والقدر حق وعدل لأسباب كثيرة ، منها

أنه يقوم على علم الله بما سيفعله كل

إنسان ، بعد أن يخبره الله بين الطاعة أو

العصيان .

يقول الله تعالى :

١ — « إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما

كفورا »

٣ : الإنسان

ويقول الله تعالى :

« ألم نجعل له عينين * ولسانا

وشفتين * وهديناه النجدين »

١٠ : البلد

وكذلك فإن هذا الحديث يبين لنا الحدود

الفاصلة بين العجز وأهمية تفريط الإنسان في

طاعة ربه — وبين الكيس وأهمية قيام

الإنسان بحق الله عليه فيكون مطيعا له عاملا

بأوامره ، مجتنباً نواهيهِ .

٢ — الإعجاز الإلهي والحث على

الإنفاق :

الحديث الثاني :

يقول الله تعالى : « يا ابن آدم ، أنى

تعجزني وقد خلقتك من مثل هذا (١٨)

حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين

بردين ، ولأرض منك وتد ، فجمعت

ومنعت ، حتى إذا بلغت التراقي قلت :

أتصدق ، وأنى أوان الصدقة (١٩)

ومن الجديد هنا أن الله يبين لنا في هذا

الحديث القدسي ، أصل خلق الإنسان في

رحم أمه ، وكيف يرعاه الله فيكبر ويملكه الله

من الأموال ، فيبخل ولا يتصدق ، ولا يفكر

في ذلك إلا بعد فوات الأوان .

٣ — الإعجاز الإلهي والتيسير على الناس

الحديث الثالث :

خرج رسول الله ﷺ — في جوف

الليل ، فصلى في المسجد فثاب رجال فصلوا

معه بصلاته ، فلوا أصبح الناس وتحدثوا أن

النبي ﷺ ، قد خرج فصلى في المسجد

من جوف الليل فاجتمع الليلة — المقبلة —

أكثر منهم .

فخرج النبي ﷺ ، اغتسل من جوف

الليل فصلى وصلوا معه بصلاته ثم أصبح

فتحدثوا بذلك فاجتمع الليلة — الثالثة —

ناس كثير ، حتى كثر أهل المسجد .

فخرج النبي ﷺ من جوف الليل ،

فصلى فصلوا معه فلما كانت الليلة الرابعة ،

اجتمع الناس حتى كاد المسجد أن يعجز

عن أهله ، فجاء النبي ﷺ ، فلم يخرج

حتى سمع ناسا منهم يقولون الصلاة ، فلم

يخرج النبي ﷺ .

فلما صلى صلاة الفجر ، سلم ثم قام في الناس فتشهد ثم قال : « أما بعد فإنه لم يخف علي شأنكم الليلة ولكني خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها (٢٠) »
وفي هذا الحديث بيان أنواع العجز في المخلوقات ، فالمسجد يعجز عن أهله لضيق مساحته .

والنبي ﷺ يخشى أن تفرض صلاة الليل على المسلمين فيعجزوا عنها !!
فالعلاقات بين الأسباب وغاياتها ، قد أحاط الله بعلمها ، وجعل سبحانه لكل شيء قدرا .
وكل شيء خرج عن حدوده التي وضعه الله فيها ، فهو باطل .

٤ — الإعجاز الإلهي ومحو أسباب الزرق الحديث الرابع :

أيما عبد كُتِبَ ثم عجز فهو رقيق (٢١)
وهذا الحديث يقدم لنا قضية جديدة هي قضية المنهج الإسلامي في تخليص الإنسان من دوافع العجز ، والخضوع للقهر في نفسه .

فالرقيق أما في فرصة العمل ، ليتخلص من رقه ، الذي يكون من أسبابه في أغلب الأحوال ، الميل للكسل ، والعجز عن مطالب الحرية ، والعظمة في الحياة .

فالتغلب على الرق بالعمل الكثير ، فيه تدريب على بلوغ آفاق العظمة ، ومراتب القوة ، كما يريد الله لعباده جميعا ، ولهذا جعل عجزهم هو نقطة الانطلاق نحو

الكيس بمعناه السابق .

٥ — الإعجاز الإلهي وبيان نسبية العجز بين المخلوقين :

الحديث الخامس :

جاء فيه أن امرأة ركبت العضباء ونجت عليها من مختطفها ، فجاء في الحديث (فطلبوها فأجزتهم) .

ثم إن المرأة نذرت لئن أنجاها الله على هذه الناقة لتنحرنها فقال النبي ﷺ ببس ما جزتها ، لا وفاء لنذر في معصية الله ، ولا فيما لا يملك ابن آدم (٢٢)

ومن الجديد هنا أن الإنسان ليس مطلق الإرادة في كل ما يقول ويفعل ، وإنما هو عاجز أن ينذر في معصية الله ، وفيما لا يملك البشر .

ومن الجديد هنا كذلك — أن العجز يكون في التسابق وبه يظهر العجز على من لم يلحق بما يطلبه .

٦ — الإعجاز الإلهي وبيان أن الاستعانة بالله تنقذ الإنسان من عجزه الحديث السادس :

المؤمن القوي ، خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز .

وإن أصابك شيء فلا تقل ، لو أني فعلت كذا لكان كذا . ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان (٢٣)

من الحقائق الجديدة هنا في تعريف الحقائق التي نحن بصدها ان الله جعل

الاستعانة به طريقاً أمام الإنسان ، يتمكن بها من مفارقة العجز ، والوصول إلى الكيس ، والتقدم نحو الخير والسعادة والقوة التي جاء معرضها في أول الحديث .
والحديث ينهى عن التردد ويأمر بالمواصلة في طلب الخير ومحاولة الوصول للقوة .
وهذه معان عملية ، لا بد من معرفتها ، للوصول إلى فهم حقائق القرآن التسبقت في تعريفه للإعجاز الإلهي والعجز البشري .

٧ - الإعجاز الإلهي والتوجه بالدعاء إلى الله وحده

الحديث السابع :

« اللهم أني أعوذ بك من الهم والحزن ، والعجز والكسل ، والبخل والجبن ، وضلع الدين ، وغلبة الرجال » (٢٤)
وما يزدنا تعريفاً بالإعجاز الإلهي والعجز البشري ، أن هذا الدعاء يبين لنا فيه النبي ﷺ ، حاجة الإنسان إلى الله تعالى ليعينه على دفع الهم والحزن ، وهما يدلان على فساد الأحوال ، واختلاف النظم ، بعد انصراف المسلمين عن العمل بما جاء به دين الله في كثير من أمورهم .

فإذا كان ذلك ركن الضعفاء من الناس إلى العجز والكسل .

فإذا كان ذلك ، أمسكوا عن الإنفاق ، وبخلوا ، فأصابهم الجبن .

فإذا كان ذلك ، وقعوا فريسة للفقير والدين ، الذي لا يجد أحدهم له وفاة .

فإذا كان ذلك ، كان هناك قهر وانهياء وتسلسل .

فلهذا ختم النبي ﷺ هذا الدعاء النبوي باستعاذته بالله من غلبة الرجال وهو معنى يتسع لأنواع كثيرة من الاحباط والهزائم منها ، هو خاص بالنفس البشرية ، فيما يخص الفرد الواحد أو هو خاص بانهياء المجتمع ووقوع أفراد ، بعضهم تحت ظلم البعض .

فإذا كان ذلك عز النصر على الأعداء وتعطلت الدعوة إلى الحق وكثر الترويح للباطل .

الحديث الثامن :

« اللهم اني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل ، والهم والقسوة والغفلة والعيلة ، والذلة ، والمسكنة » .
« وأعوذ بك من الفقر والكفر ، والفسوق والشقاق ، والنفاق والسمعة والرياء »

« وأعوذ بك من الصم ، والبكم ، والجنون ، والجدام ، والبرص ، وسوء الأسقام » (٢٥) .

وهذا الحديث وثيق الصلة بالحديث الذي قبله بل هو امتداد له يبدأ بالاستعاذة بالله تعالى ، من العجز والكسل ، ثم بالاستعاذة به سبحانه من أنواع القهر ، وما يتبعه من أهوال .

وتأتي بعد الاستعاذة بالله ، من أنواع الفقر البادي ، والأخلاقي ، والعلمي

والاستعاذة بالله من أنواع الأمراض .

الحديث التاسع :

اللهم أني أعوذ بك من العجز والكسل ،
والجبن والبخل والهرم ، وعذاب القبر وفتنة
الدجال .

اللهم آت نفسي تقواها ، وزكها أنت
خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها .

اللهم أني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن
قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن
دعوة لا يستجاب لها . (٢٦)

وهذا الحديث امتداد للحديثين
السابقين ، ابتداء من الاستعاذة بالله من
العجز والكسل ، ثم يأتي الجديد هنا في
الاستعاذة من عذاب القبر ، وفتنة الدجال .
قدم عذاب القبر لأنه أشد على من
استحقه ، من فتنة الدجال وأن كانت هذه
الأخيرة ، أسبق في التسلسل الزمني .
ولهذا الترتيب حكمته القائمة على النظر
للأحداث من حيث خطرها وشدتها ،
وترتيبها تبعا لذلك .

ثم دعا النبي ربه عز وجل ، أن يؤتي
نفس الانسان تقواها ويذكها مع الإقرار بأن
الله هو الولي وهو المولى ، الذي لا ملجأ منه
إلا إليه .

ثم استعاذ النبي بربه جل شأنه من أربعة
أمور ، الأول : هو العلم الذي لا ينفع ، إذ
النفع مقترن بالعلم ، ولولا لتعطلت آثار
العلم .

والثاني : هو القلب الذي لا يخشع لله
تعالى ، لأنه يكون قلبا غير مؤد لأهم
وظائفه .

والثالث : هو النفس التي لا تشبع ، لأن
العلم إذا كان مؤديا إلى الرياء ، والكبر ، لم
يكن نافعا وكان ضارا فيقسو القلب ولا
يخشع لله ولا يحب عباد الله تقربا إليه ،
فتكون النفس شرهة ، قاسية ، جامدة .
وهذا ليس بسبب العلم ، وإنما بسبب
تعطيل العمل به

والرابع : هو الدعاء الذي لا يستجيب
الله له .

وهذا نتيجة لكل ما سبق ، لأن الله إنما
يستجيب لمن دعاه وهو تقي ، نقي . تدرج
في الترتيب مما هو سابق زمانا ، إلى ما هو
لاحق .

فإذا نظرنا نظراً أعم ، وجدنا هذا
التسلسل الواقعي محتويا على ترتيب عام قائم
على تقديم العذاب ، لعظمة المصائب فيه .
على فتنة الحياء ، والملمات مع ان فيها
الاختبار الذي يكون أولا ، ثم تتبعه
العذاب .

فبذلك يكون الترتيب في أجزاء الحديث
واقعا من حيث التسلسل الزماني

بينما هو متضمن من الناحية الموضوعية ،
ترتيا مراعي لأحوال الإنسان ، وما يصيبه من
الكوارث التي لا منجى منها إلا باللجوء الى
الله ، فقدم النتيجة لأنها أشد وقعا وألما على
المقدمة المؤدية إليها .

وقد رأينا أن الترتيب القرآني أعظم من ذلك كثيرا ، ثم يتبعه كلام النبوة ، الذي لا يدخل في كلام البشر ، وإنما هو وحى الهى خص الله به عبده وخاتم رسله ، وأجراه على لسانه .

الحديث العاشر :

« اللهم انى أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن ، والبخل ، والهزم وأعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من عذاب النار .

وأعوذ بك من فتنه المحيا والممات (٢٧)

هذا الحديث ، امتداد للأحاديث السابقة التي دارت كلها حول الاستعاذة بالله من العجز والكسل ، ومن المأسي التي تتفرع من هذين الأصلين .

ومن الجديدهنا — الاستعاذة بالله ، من عذاب القبر وعذاب النار . وفيه تدرج في الترتيب من العذاب الأدنى إلى العذاب الأكبر .

ثم عاد إلى أسباب ذلك كله فاستعاذ بالله من فتنه المحيا والممات .

٨ — الإعجاز الإلهي وقبول شفاعته النبي يوم القيامة :

الحديث الحادي عشر :

حديث طويل عن أهوال القيامة .

وقد جاء في نهايته قول النبي ﷺ ونبئكم قائم على الصراط يقول :

رب سلم سلم

حتى تعجز أعمال العباد (٢٨)

وهذا الحديث يبين لنا أن أعمالنا الصالحة إنما هي طريق إلى رحمة الله وليست وفاء بحقوق الله علينا (٢٩)

وعجز أعمالنا الصالحة عن القيام بكل ما يجب علينا لله تعالى ، معنى جاءت به السنة وتفردت به ولكنه وثيق الصلة بالحقائق التي سبقت بها آيات القرآن واستخلصت منها التعريف للإعجاز الإلهي في الخلق والوحي . ثم جاءت الأحاديث السابقة بوجه من العلم ، يكتمل بها فهمنا وتم بها معرفتنا لجملة — الحقائق الخاصة بذلك .

ولقد جاء في هذا الحديث ، بيان لشفاعة النبي ﷺ ، لمن استحق شفاعته يوم القيامة .

وهذه الشفاعه تكون بإذن من ربه عز وجل .

وهذا أمر له مغزاه في بيان الإعجاز الإلهي والعجز البشري .

هذه كلها أصول أجمل الوحي الإلهي فيها الحدود الفاصلة بين ما جعله الله ، مناطا لقوة الإنسان ومجالا للتقدم في العلم النافع والعمل الصالح ، وبين ما جعله الله سبحانه سببا في عجز الإنسان وتخلفه ، فطاعة الله معها التقدم والتعلم والنجاح والفلاح ، وعصيان الله معه دائما الخسران المبين والعجز الأليم .

من أصول الإعجاز العلمي

عند طائفة من العلماء السابقين

سننظر — بعون الله — إلى ما سبق به الرواد الأوائل ، ممن كتبوا عن الإعجاز ، ابتداء من الخطابي في القرن الرابع الهجري ، وانتهاء بالسيوطي في القرن التاسع الهجري . ثم نختم هذا العرض ، بمثل واحد من العلماء المعاصرين ، هو العلامة الراحل ، الدكتور الغمراوي .

١ — مع الخطابي وكلامه عن المنهجين المعنوي والتركيبي :

القرآن الكريم ، يحمل معه علوما بعدد كلماته ، وعدد تراكيبيها ، وتراتيبيها . والخطابي يركز اهتمامه على منهجين اثنين ، يستخلصهما من سور القرآن وآياته (٣٠) .

فأما المنهج الأول : فهو المنهج المعنوي ، وأساسه أن يستخلص كل من يقرأ القرآن ، ما يتيسر له من معانيه ، لتكون فرقانا يعرف به الحق من الباطل ، والهدى من الضلال . ذلك أن معاني القرآن حق خالص ، ويقين دائم ، ومهما تكن الفترة التاريخية ، لكل أمة من الأمم ، التي تحيا في نوره ، فإن كل أمة تأخذ منه ما يناسب عصرها ، ومبلغها من العلم ، ومع ذلك فإن الذي يقف عند النور القرآني ، لا يتعداه بأوهامه ، وظنونه ، لا يزال في حصن حصين من عثرات الفكر ، وسقطات الضلال ، وسيئات الأقوال والأعمال .

يقول الله تعالى :

« الشمس والقمر بحسبان »

٥ : الرحمن

فأهل العلم القدامى قالوا عن قوله تعالى « بحسبان » ، أي بحساب فعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال في حديث عن مقادير الزكاة ، (ولا يفرق أبل عن حسابها) (٣١) ، أي حسابها . وعن أبي مالك رضي الله عنه ..

« الشمس والقمر بحسبان » قال عليهما حساب وأجل كأجل الناس ، فإذا جاء أجلهما هلكا (٣٢) .

ومجاهد من كبار التابعين ، وتلميذ الصحابي الجليل ابن عباس ، فسر لنا هذه الكلمة بقوله أي بحسبان كحسبان الوحي ، وزاد القرطبي : يعني يدوران في مثل القطب (٣٣) .

حتى إذا وصلنا الى الراغب الأصفهاني المتوفي سنة ٥٠٣ هـ وجدناه يقول عن قوله تعالى « بحسبان » أي ما يحاسب عليه فيجازي بحسبه (٣٤) .

أما في القرن الثامن الهجري فإن ابن كثير المتوفي سنة ٧٧٤ يقول عن قوله تعالى « بحسبان » أي يجريان متعاقبين ، وبحساب مقنن ، لا يختلف ولا يضطرب .

والمعاصرون من أهل العلم ، يربطون بين هذا كله في تنوع لا تناقض فيه ، ليؤكد لهم ما وصلوا إليه من الحقائق الدالة على أن لكل ذرة فما فوقها ، حسابا خاصا بها .

فهذا التنوع الذي يتسع لكل درجات الفهم للحقيقة الواحدة ، ليصلها جميعا باليقين من وجوه كثيرة ، لا يقدر البشر أن يحققوه لمعانهم بحال من الأحوال .

والقرآن مهما تنوع الصيغ في كلماته ، فهي دائما تصلنا بمدلولاتها العملية في الوجود كله ، وصلا دائما لا انقطاع له ، لأنه قائم على الحق الذي لا يختلف ، واليقين الذي لا يزول .

وانظر — مثلا — إلى قول الراغب الأصفهاني عن قوله تعالى « وهم من كل حذب ينسلون »

٩٦ : الأنبياء

الأصل في الحذب حذب الظهر ، يقال ناقة حذباء ، ثم شبه به ارتفاع من الأرض . فكان الراغب ، نظر إلى أن قوله تعالى « من كل حذب » أي من كل مكان مرتفع^(٣٥) .

ولكن أهل العلم من المعاصرين يعلمون يقينا أن الأرض كروية الشكل ، فكلمة حذب تتسع لكل مكان من الأرض ، وقوله تعالى ينسلون يتسع ، لكل مشاهد النزول من أعلى إلى أدنى ، وهذا هو شأن الزحام حين نشاهده ، من بعيد .

ولو جاء هذا المشهد في كتاب بشري ، محدثنا اليوم عن كروية الأرض ما التفت صاحبه إلى تضمين هذا المعنى في كلمة واحدة هي كلمة (حذب) فربما قال من كل صوب ، أو من كل سبيل ، ولم يذكر

الحذب ، على وجه التحديد . وتنوع الكلمة في مثل هذا الشأن حيث يقول الله تعالى :

« يأتين من كل فج عميق »

٢٧ : الحج

فأنت ترى أن كلمة عميق بعد كلمة فج أفادت معنى التكور ، على نحو من الوجوه ، فالعمق تصحبه الاستدارة تعني الانثناء والانحناء ولهذا قالوا :

الفجاج جمع فج منها الظليم أي ذكر النعام ، يبيض بيضة واحدة ، وجاء في شعرهم

بيضاء مثل بيضة الفجاج

وقالوا حافر مفعج مقبب

وقالوا واد أفجيج أي عميق وربما سمي به الثني في الجبل^(٣٦) .

فها نحن نرى أن حقيقة استدارة الأرض ، لم تفارق أي كلمة من الكلمات التي لم تأت أصلا في هذا الشأن ، وإنما جاءت في أمور أخرى ، وفي صيغ لغوية شديدة التنوع ، مما كان يحتمل معه أن لا تتسع لمثل هذه الحقائق البعيدة عن سياقها وقصدها .

انه كلام الله وكفى .

وإعجازه يحمل معه ، دفعا متواصلا لكل حقائق التقدم العلمي .

أما المنهج الثاني : فهو المنهج التركيبي ، الذي ننظر من خلاله ، إلى عدد المواضع الذي يخص كل قدر من الكلام في القرآن

أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظاما أحسن تأليفا ، وأشد تلاؤما ، وتشاكلا من نظمه .
 ٣ — ثم يربط بين المنهج المعنوي ، والمنهج التركيبي — معا — فيقول :
 وأما المعاني فلا خفاء على أي عاقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها ، والترقي إلى أعلى درجات الفضل في نعومتها ، وصفاتها^(٣٨) .

ومعاني القرآن زاجرة بحقائق العلم ، التي تفتح الطريق دائما أمام التقدم في آفاقها .
 ثم يبين الخطائي أن الأصول الثلاثة وهي اللفظ الحامل ، والمعنى ، الذي يقوم به ، والرباط الذي ينظمه ، لا تأتي بتمامها إلا في كلام الله ، الذي أحصى كل شيء عددا ، وأحاط بالكلام كله علما^(٣٩) .

والخطائي في هذا القدر من كلامه ، ربط بين الوحي القرآني في معانيه وتراكيبه ، وبين وقائع الوجود كله ، وبهذا جاءت السنته ضمن وقائع الوجود .
 ولكن السنته أصل تشريعي ، مصاحب للأصل الأول وهو القرآن ، فلو خصها بالذكر ، وبحث في تركيبها بالنسبة لآياته وسوره ، لزدانا بيانا ، على بيان ، وتم هذا الكلام القيم من كل وجوهه .

فلعله جاء بهذا الطلب في موضع آخر من كلامه ، ولم أطلع عليه .
 ولعله اكتفى بالاجمال حيث كنا نحتاج إلى التفصيل .
 ومهما يكن من أمر ، فإننا بحاجة إلى

كله ، فمهما تكرر مواضع كلمة قرآنية فهي واحدة في نصها ، ولما كانت كثرة مواضعها ، مما يظن معه الاختلاف أو التناقض ، فهي في هذه الحالة تتصل بوجوه متجددة ، ولكنها مترابطة في حركة واحدة لا تنقطع ، مع الترتيب المعجز في مقاصدها^(٣٧) .

وهذا وجه آخر من وجوه التقدم العلمي المتواصل الذي يحمله معه إعجاز القرآن
 ١ — والخطائي يصف المنهج المعنوي حيث يقول :
 في إعجاز القرآن ، وجه آخر ، ذهب عنه الناس ، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم .

وذلك صنيعه بالقلوب ، وتأثيره في النفوس ، فإنك تسمع كلاما غير القرآن ، منظوما أو منشورا ، إذا قرع السمع ، وخلص له إلى القلب ، من اللذة والحلاوة ، في حال ، ومن الروعة والمهابة ، في أخرى ، ما يخلص منه إليه .

٢ — ثم يتجه إلى المنهج التركيبي فيقول :
 إنما يقوم الكلام ، بهذه الأشياء الثلاثة فقط :

لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لها ناظم .
 وإذا تأملت القرآن ، وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة ، حتى لا ترى شيئا من الألفاظ ، أفصح ولا أجزل ، ولا

كلام الخطائي ، في عصورنا هذه المتأخرة ،
أكثر مما احتاج إليه المتقدمون .
وهذا من روعة هذا الكلام ، وكثرة وجوه
العلم فيه .

٢ - مع الباقلائي ورأيه في الإعجاز بين القرآن والسنة :

إن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتاً بيناً في
الفصل والوصل ، والعلو والنزول ، والتقريب
والتباعد ، وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب
عند النظم ، ويتصرف فيه القول عند الضم
والجمع .

أما القرآن فهو على اختلاف فنونه ، وما
يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة ، والطرق
المختلفة فهو يجعل المختلف كالمؤتلف ،
والمبتاين كالمتناسب ، والمتنافر في الأفراد إلى
حد الآحاد .

وهذا أمر عجيب ، تبين به الفصاحة ،
وتظهر به البلاغة ، ويخرج معه الكلام ، عن
حد العادة ، ويتجاوز العرف (٤٠) .

ونقف عند قول الباقلائي (إن القرآن
يجعل المختلف كالمؤتلف ، والمبتاين
كالمتناسب ، والمتنافر في الأفراد إلى حد
الآحاد) .

ومن معاني هذا الكلام للباقلاني رحمه
الله ، أن القرآن كله ، في جملته وتفصيله ،
متجدد في صلاته ، فلكل قدر من
كلماته ، تفرد في مبناه ومعناه ، وحركة دائبة
في مواضعه ، من الآيات والصور ، فلا
ينبغي أن يؤمن الناس ببعض منه ويكفروا

ببعض ، وإنما كلام الله ، وما يفسره ،
ويطبقه ، من سنة نبيه ﷺ ، ملزمان للناس
كافة ، بوجوب العمل بهما معا ، إلى يوم
القيامة .

ولكن الباقلائي ، جاء بخطب من خطب
النبي ﷺ ، وكتب من كتبه إلى ملوك
العالم ، وقال : (قد بينا أننا إذا وازنا بين
خطبه ورسائله وكلامه ، وبين نظم القرآن ،
تبين من البون بينهما ، مثل ما بين كلام الله
عز وجل ، وبين كلام الناس .

فلا معنى لقول من ادعى ، أن كلام
النبي ﷺ ، معجزه وإن كان دون القرآن في
الإعجاز (٤١) .

وهذا كلام يقتضينا أن نتبين معا أن
السنة القولية والعملية والتقريرية ، ليست
داخلة في كلام البشر ، ولا أفعالهم ، ولا
تقريرهم ، وإلا كان الإلزام بهذا كله من
النبي ﷺ ، كالإلزام بما صدر من غيره من
سائر الناس ، سواء بسواء .

وما كان لمؤمن بالله ورسوله ، أن يدعي
هذا أو يعتقد ، بحال من الأحوال .

« قل لئن اجتمعت الإنس والجن على
أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو
كان بعضهم لبعض ظهيراً »

٨٨ : الإسراء

وكيف يتصور أحد ذلك ، مع قول النبي
ﷺ : (ألا أني أوتيت القرآن ومثله معه ،
ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول :

إن هو إلا وحي يوحى »

٣ — ٤ : النجم

ولكن الباقلائي — رحمه الله — وقف عند خوفه من أوهام الملحددين ، أن يدعوا أن القرآن ، من كلام محمد ﷺ ، وهؤلاء لا وزن لهم ، ولا ينبغي أن نسكت عن الحق من أجلهم .

ولقائل أن يقول بعد ذلك أن — الباقلائي رحمه الله — نظر إلى ما تفرد به القرآن من الفصاحة التي لا ينبغي أن تجدها في أي كلام غيره .

والحق مع الباقلائي في ذلك ، ولكن الله تعالى ، جعل للإعجاز القرآني ، آثارا ، بكل مقوماتها القولية ، والعملية ، والتقريبية .

ولهذا جاءت بعد قول النبي ﷺ : (ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه) أو أمر من النبي ﷺ ، متصلة بأصول قرآنية ، ولكنها منفصلة في الحديث تفصيلا لم يأت بنصه في القرآن .

فقوله تعالى : « يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الحباثت »

١٥٧ : الأعراف

يتسع لكل المعاني السابقة ، من حقيقة الإلزام الإلهي ، بالقرآن والسنة معا ، كما يتسع لقوله ﷺ (ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلي) .

عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلي ، ولا كل ذي ناب من السبع ، ولا لقطة معاهد ، إلا أن يستغني عنها صاحبها ، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه ، فإن لم يقروه فله أن يُعَقِّبَهُمْ بمثل قراه) (٤٣) .

فالآية السابقة من سورة الإسراء ، جاءت ببيان عجز البشر أن يأتوا بمثل القرآن .

أما الحديث النبوي السابق ، فقد جاء ببيان عجز البشر أن يأتوا بمثل السنة ، لأنها تتضمن حقائق تشريعية جديدة بالنسبة ، للحقائق التشريعية في القرآن .

فهكذا نعلم أن عجز البشر ، أن يأتوا من عند أنفسهم بمثل كلام الله ، كعجزهم أن يأتوا من عند أنفسهم بمثل السنة ، التي خص الله بها نبيه من بين عباده جميعا .

عن أبي إمامة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : (ليدخلن الجنة بشفاعتي رجل ليس بنبي ، مثل الحيين ربيعة ومضر ، وإنما أقول ما أقول) (٤٤) .

إن هذه الكلمة الجامعة في هذا الحديث النبوي « وإنما أقول ما أقول » تُرَدُّ الإعجاز في أحاديث النبي ﷺ ، إلى الفعل الإلهي ، في انطاق الله تعالى ، لعبده وخاتم رسله بما أنطقه به .

يقول الله تعالى : « وما ينطق عن الهوى

فقد شاء الله أن يحرم ، كل الخبائث إجمالا كما جاء في القرآن ، وأن يحرم رسوله بما علمه الله ، وبما أذن له ، أكل لحم الحمار الأهلي ، كما جاء هذا التفصيل في السنة ،

وبذلك نظل ملتزمين بالوحي الإلهي ، من قرآن وسنة ، التزاما دائما .

هذه الأمور لم يتحدث عنها الباقلاني ، ولو تحدث عنها ، وهو أهل لذلك ، لما وقف عند حد الخوف ، مما يدعيه الملحدون ، بل لغلبيهم على أمرهم ، بهذا التنسيق المعجز ، بين معاني القرآن ، ومعاني السنة ، وهو أمر لا يقدر على أن يأتي من شاء من عباده ، ويجعله ملزما للناس كافة ، إلا الله وحده .

فهذا كله يؤكد لنا أن الإعجاز في حقيقته الأساسية ، إنما هو في كل أفعال الله ، أوقواله ، وإحاطته بكل شيء ، من خلقه وروحيه .

ثم إن الباقلاني — رحمه الله — حيث وقف عند الناحية اللغوية وحدها ، بما هو متعلق بها من الفصاحة ، والبلاغة ، لم ينفذ إلى المضمون المعجز الذي جاء في كلام النبي ﷺ .

ذلك أن الباقلاني ، ضمن كتابه ، عددا من خطب النبي ﷺ ، محاولا بها أن يؤيد رأيه في أن الفرق ، بين القرآن ، والحديث النبوي هو كالفرق ، بين كلام الله ، وكلام سائر الناس (٤٥) .

ثم ذكر الباقلاني أنه يخشى أن يقول إن

السنة غير كلام سائر الناس ، حتى لا يظن الملحدون أن القرآن نفسه ، من كلام النبي ﷺ !!

وفي الحقيقة أن كلام الله تعالى ، له من الفضل على سائر الكلام ، ما ليس لغويو . ولكن الله شاء جلت حكمته ، أن يلزمنا بوحيه القرآن ، ثم بوحيه في الحديث النبوي ، الزاما واحدا ، لا اختلاف فيه ، من حيث وجوب اتباعه ، والاحتكام إليه ، والتسليم له .

فهكذا نعلم ، أن الحديث النبوي ، مع سائر أعمال النبي ﷺ ، وتقريراته ، كل هذا له حظه من الإعجاز ، بمعنى أنه لا يقدر أحد غير خاتم رسل الله ، أن ينطق به ، أو يكلفنا بالأعمال المستفادة منه .

ولو كان كلام النبوة ، بالنسبة لكلام الله ، مثل كلام سائر الناس ، لاستطاع مسيلمة الكذاب ، وسجاح ، والأسود العنسي ، أن يؤيدوا دعواهم الكاذبة ، بألوف القصائد الرائعة ، والخطب الفصيحة ، ولو انتحلوها ، انتحالا ، وأعانهم عليها ، أتباع كثيرون .

ولكن صلة السنة النبوية ، بكلام الله ، وهي صلة عقدها الله تعالى ، هي مناط الإعجاز في السنة ..

ولولا ذلك لكانت الدنيا بأسرها ، بوسائل اعلامها الحديثة ، ومطابعها ومكتباتها ، وفلاسفتها ، وعلمائها ، قادرة أن تلزمنا بهذا كله ، أو بشيء منه ، أو تقنعنا

بأنه كلام لا ريب فيه ، ولا مجال لأي خطأ فيه ، ولكن هيهات هيهات ، ان كلام الله وسنة رسوله ، مصدران تشريعيان لا خطأ فيهما البتة ، وهذا هو الجانب العملي في إلزامهما للناس كافة ، إلزاما يقوم على الاقتناع بلا قهر ولا تسلط ، لأنه هو الحق الذي لا باطل فيه ، وهذا هو سر تغلغلها في القلوب ، ورسوخ حبهما الدائم في النفوس .

أما كل النظريات الفلسفية ، فهي تختلف عن شروحها ، ويعارضها الكثير من تفسيراتها ، بوعي من المفسرين ، أو بغير وعي منهم ، لأن الناس يكتشفون فيها الخطأ بعد الخطأ ، والتناقض مع حقائق الوجود ، بعد التهافت .

وبذلك ندرك الأصل العملي ، للحدود الفاصلة بين الإعجاز في كلام الله وسنة رسوله ، وبين نظريات البشر ، وما يتداعى عليها من شروحاتها القولية ، وتطبيقاتها العملية ، وسائر ما يقر عليه أصحابها بعضهم بعضا ، من أفكارهم وأقوالهم وأفعالهم .

ولننظر في خطبة أيام التشريق ، التي ضمنها الباقلاني كتابه ، لبيبي عليها وعلى غيرها من كلام النبي ﷺ ، رأيه الذي ناقشناه — معا — في هذا السياق .

(يا أيها الناس أتدرون في أي شهر أنتم ، وفي أي يوم أنتم ، وفي أي بلد أنتم .

قالوا : في يوم حرام ، وشهر حرام ، وبلد حرام .

قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم ، عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، إلى يوم تلقونه . ثم قال : اسمعوا مني تعيشوا (ألا لا تظالموا ، ألا لا تظالموا ، ألا لا تظالموا)

ألا إنه لا يحل مال امرئ إلا بطيب نفس منه ، ألا وإن كل دم ومال ومأثرة ، كانت في الجاهلية ، تحت قدمي هذه ، إلى يوم القيامة ، وإن أول دم يوضع دم ريبة بن الحارث بن عبد المطلب ، كان مسترضعا ، في بني ليث ، فقتلته هذيل .

ألا وإن كل ربا كان في الجاهلية موضوع ، وإن الله عز وجل ، قضى أن أول ربا يوضع ، ربا العباس بن عبد المطلب . لكم رؤوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تظلمون .

ألا وإن الزمان ، قد استدار كهيئته ، يوم خلق الله السموات والأرض ، ثم قرأ « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم »

٣٦ : التوبة

ألا لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض .

إلا إن الشيطان قد يئس أن يعبد المصلون ، ولكنه في التحريش بينكم .

يهتم به الناس ، من دمائهم وأموالهم وأعراضهم .

ثم بين حقائق العدل ، حيث نهى عن الظلم ، وبين حرية الإنسان في أن يحتفظ بأمواله ، فلا يأخذها أحد ، عن غير طيب نفس منه .

ثم بين النبي ﷺ ، أن الله أمره أن يضع دماء الجاهلية ، وربا الجاهلية ، وأمره أن يخص بالذكر دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وربا العباس بن عبد المطلب .

ثم بين النبي ﷺ ، أن رؤوس الأموال ، هي الأصول التي أمر الله أن يحتفظ بها أصحابها ، ليستقبلوا بها أيامهم المقبلة ، في الحياة الإسلامية .

وهنا بين النبي صلوات الله وسلامه عليه ، إن الزمان قد استدار ، كهيته يوم خلق الله السموات والأرض .

واستدارة الزمان ، شيء يعرفه في تاريخنا المعاصر ، كبار العلماء الذين يعرفون تكوين أجزاء السموات والأرض وما بينهما ، ومكوناتهما الدقيقة ، على مستوى الذرة ، والخلية ، وصلة كل شيء من ذلك بالزمان والمكان .

وهؤلاء العلماء ، هم الذين يدركون سر العظمة ، في قول النبي ﷺ (إن الزمان استدار) .

وقد تكون الاستدارة بمعنى الحركة ، التي علمنا أخيراً أنها دائرية ، كما أن مكونات كل

فاتقوا الله عز وجل في النساء ، فإنهن عندكم عوان ، لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وإن لمن عليكم ، ولكم عليهن حقا ، أن لا يوطئن فرشكم أحدا غيركم ، ولا يأذن في بيوتكم لأحد تكرهونه ، فإن خفتم نشوزهن ، فعظوهن ، واهجروهن في المضاجع ، واضربوهن ، ضربا غير مبرح . ولهن رزقهن ، وكسوتهن ، بالمعروف ، وإنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن ، بكلمة الله عز وجل .

ومن كانت عنده أمانة ، فليؤدها إلى من ائتمنه عليها .

وبسط يديه فقال : ألا هل بلغت ، ألا هل بلغت ، ألا هل بلغت ثم قال : ليلغ الشاهد الغائب ، فإنه رب مبلغ أسعد من سامع (٤٦) .

إن الباقلاني — رحمه الله — نظر إلى ناحية الفصاحة اللغوية وحدها ، كما يفهمها هو ومعاصروه ، في القرن الرابع الهجري ، وكل ما فيها هو فخامة الדיباجة ، واختيار الغريب من الألفاظ ، وإظهار البراعة في سبك المعاني ، وحسن صياغتها .

ولو نظر إلى الصلة التي عقدها الله تعالى ، بين القرآن والسنة ، لفتحت أمامه ، كنوز الحقائق ، التي لا سبيل إليها في غير الوحي الإلهي .

لقد تحدث النبي ﷺ ، عن المكان والزمان ، وعن الحلال والحرام ، وصلتهما بما

شئ في خلق الله دائرية الشكل ، والهيئة ، وبذلك ندرك سر العظمة ، في قول النبي ﷺ ، (إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض) .
وهنا قرأ النبي ﷺ ، الآية السادسة والثلاثين من سورة التوبة .

وهذه الآية تأتي من حيث الترتيب في المصحف ، في بداية الترتيب لأربعة آيات ، جاء فيها كلها ، قوله تعالى : « ذلك الدين القيم » موصولا بباب جديد من أبواب العلم في القرآن كله ، مع كل آية بذاتها ، من بين هذه الآيات الأربع .

١ — إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا إلى قوله تعالى : « ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم »

٣٦ : التوبة

إن الزمان من أهم حقائق الغيب الذي يواجهه الإنسان ، منذ شعوره بذاته ، فوق الأرض ، وتحت السماء .

فهذا ولكثير مما لا نخطط بعلمه ، جاءت هذه الآية في المقدمة من حيث ترتيب الآيات الأربع السابقة الذكر ، بين سور المصحف .

٢ — « ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون »
٤٠ : يوسف

فلما تم بيان علاقة الإنسان بالزمان ، في آية التوبة ، جاء في الآية السابقة من سورة يوسف ، بيان أول ما يحتاج الإنسان من أعلى أنواع المعرفة ، وهو معرفته لإله الحق ، وهو الله لا إله غيره .

٣ — « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون »

٣٠ : الروم

لقد جاءت هذه الآية في ترتيبها بين الآيات الأربع التي نجد فيها قوله تعالى « ذلك الدين القيم » لأنها بينت لنا أن النبي ﷺ ، مكلف من ربه أن يتبع دين الله الذي فطر الله عليه كل المجتمعات الصالحة ، فيما خلا من التاريخ قبله ، وفطر عليه السموات والأرض ، وسائر خلق الله الذي لا تبديل له .

فها هنا يظهر لنا النظم الإلهي للزمان والمكان ، في حقيقة جامعة .

٤ — « فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله »

٤٣ : الروم

إن هذه الآيات الأربع ، بترتيبها القرآني ، العظيم في إعجازه ، قد انتهت بنا مع آخر آية فيها ، إلى يوم القيامة ، وبينت أن النبي ﷺ ، مكلف أن يستمر على العمل بدين الله ، لا لنفسه وحده ، وإنما لكل الناس ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

فلهذا وجدنا خطبة أيام التشريق ، قد أخذت بعد قراءة الآية السادسة والثلاثين من سورة التوبة ، الطريق المنتهي إلى بيان النهي عن الحرب بين المسلمين بعضهم بعضا ، وبيان أن الشيطان قد يمس أن يعبد به المسلمون ، بعد أن أسلموا ، ولكنه يجرش بينهم ، أي يوقع بينهم العداوة والبغضاء .

ولأن المسلمين يتكاثر عددهم ، منذ عهد النبي إلى قيام الساعة ، فقد قال النبي ﷺ : فاتقوا الله في النساء ، ثم بين حقوق الرجال على النساء ، وحقوق النساء على الرجال ، ثم أمر بالأمانة ، حتى أنهى خطبته بقوله : ألا هل بلغت (ثلاثا) ، وأمر أن يبلغ الشاهد الغائب ، فرب مبلغ أسعد من سامع .

إن هذه الخطبة ، تقوم على ترابط وثيق بين قضايا كل مكان وزمان ، كما جاءت مجملة في القرآن ، وكما فصلتها هذه الخطبة في السنة أو أن حاولنا — معا — أن نصيب بعض الحقيقة أكثر من ذلك ، فإننا نقول : (إن معاني القرآن والسنة ، كما ظهرت معجزاتهما معا ، في الآيات الأربع التي فتحت لنا هذه الخطبة أبوابها ، وكذلك في الخطبة ذاتها ، إنما هما متفاعلان تفاعلا لا يقدر على تنسيق أجزائه ، وربطه بتأثيراته الدائمة ، في جملة الحقائق الخاصة به ، في كل زمان ومكان ، إلا الله وحده لا شريك له .

وهذه الحقائق لا تخفى على الباقلاني الذي تعلمنا منه ، كيف نفكر في الإعجاز .

ولكنه كان يتحدث عن النص القرآني في ذاته ، لا عن تأثيره العملي في الحياة ، وهو معجز بنصه وتطبيقاته العملية معا ، غير أن هذه الأخيرة لا يتم الكلام عنها ، إلا مع الكلام عن السنة .

فلا ريب في أن التقدم العلمي ، بكل أنواعه ، يجد آفاقه الرحبية ، في الربط بين القرآن ، والسنة النبوية ، والسنة الكونية ، بما يتفق مع كل قضية بذاتها من قضايا العلوم .
٣ — مع الخطيب الاسكافي في بيانه للآيات المتشابهات :

في كتاب (درة التنزيل وغرة التأويل ، في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز) يحدثنا الخطيب الاسكافي (٤٧) عن التركيب القرآني ، المتجدد المقاصد ، مهما تتشابه آيات القرآن .

وننظر إلى ثلاث آيات متشابهات لنرى كيف تحدث عنها الخطيب الاسكافي .

١ — « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنجاري والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

٦٢ : البقرة

٢ — « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنجاري من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »
٦٩ : المائدة

٣ — آية سورة الحج وفيها قول الله تعالى :
« إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين
والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله
يفصل بينهم يوم القيامة »

الحج : ١٧

يقول الاسكافي — رحمه الله —
للسائل أن يسأل فيقول : هل في
اختلاف هذه الآيات ، بتقديم الفرق
وتأخيرها ورفع الصابئين في آية ، ونصبها في
أخرى ، غرض يقتضي ذلك ؟
والجواب أنه (لا بد من حكمة هناك
تطلب ، فإذا أدركتموها فقد ظفرت ، وإن لم
تدركوها فليس لأنه لا حكمة هناك بل
جهلتم) (٤٨)

١ — ونلخص ما قاله الإسكافي عن ذلك
فنجده يبين لنا أن ترتيب المقاصد لآية البقرة
قد تم على أساس الفترات التاريخية التي
جاءت فيها الكتب السابقة بحسب فترة كل
كتاب منها .

أما الصابئون فهم قوم يتقلبون من دين
إلى آخر ، ولهذا جاء ذكرهم بعد ذكر أهل
الكتابين .

٢ — أما الترتيب في آية المائدة فقد تم على
أساس كل أمة من هذه الأمم فالصابئون
وجدوا قبل النصارى ، ولهذا ذكروا قبلهم ،
وقد جاءت الصابئون مرفوعة على أن النية فيه
التأخير بعد خبر ان وتقديره ولا هم يحزنون
والصابئون كذلك فهو مبتدأ والخبر
محذوف (٤٩) .

٣ — أما آية الحج فقد ذكرت فيها هذه
الأمم ، وفق أزميتها كذلك ، مع تأخير الذين
أشركوا ، لأن النبي ﷺ ، بعث فيهم ،
وجاءهم بالدعوة الخاتمة الى دين الله تعالى .

وبانتفاء ملحوظات الاسكافي ، رحمه الله
يتبين لنا أن هذه الآيات الثلاث قد جاء في
أولها ترتيبا وهي آية البقرة قوله تعالى :
« فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف
عليهم ولا هم يحزنون » .

بينما آية المائدة وهي الثانية ، في ترتيب
المصحف ، قد جاء فيها قوله تعالى :

« فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »
ولم نجد فيها « فلهم أجرهم عند ربهم »
فتبين بذلك أن آية البقرة لمن مات
منهم ، بينما آية المائدة لمن بقي على دينه
منهم ولم يميت سواء أدرك النبي ﷺ ودخل
في دينه ، أو لم يدركه ، وإنما كان مؤمنا به ،
ومات على ذلك قبل بعثته ، على أساس انه
قرأ عنه في التوراة والإنجيل .

وبذلك تكون الآيتان قد صورتا حالة
هؤلاء جميعا ، في حال موتهم أو حياتهم ما
داموا كما قال الله عنهم « من آمن بالله
واليوم الآخر وعمل صالحا » .

والإيمان بالله واليوم الآخر ، يقتضي أن
يكونوا أهل توحيدة ، وأن يكونوا مؤمنين
ببعثة النبي محمد ﷺ ، فهم على هذا
الاعتقاد سواء أدركوه فآمنوا به أو ماتوا قبله
مؤمنين ، بأنه مبعوث لا محالة .

ومن الدليل على ذلك أن الآية الأخيرة ،

في ترتيب المصحف ، وهي آية الحج جاء بها قوله تعالى :

« إن الله يفصل بينهم »

ولم نر بها تأمينهم من الخوف والحزن ، كما جاء في آية البقرة وآية المائدة .

فهذا يدل على أن آية الحج ، تخص المعاصرين للنبي ﷺ ، من هؤلاء جميعا .

ومع أن هذا الفهم يقوم على مجرد الاجتهاد في الرأي إلا أن نصوص هذه الآيات المتشابهات ، تؤكد ثلاثتها ما ذهبنا إليه والعلم كله عنده تعالى .

ثم ان مما يؤكد هذا أيضا ، هذا الحديث الذي يبين لنا ، سبب نزول آية البقرة .

فقد روى مجاهد قال : قال سلمان الفارسي رضي الله عنه ، سألت النبي ﷺ عن أهل دين كنت معهم ، قلت يارسول الله : كانوا يصلون ويصومون ويؤمنون بك ويشهدون أنك تبث بيننا ، فأنزل الله هذه الآية (٥٠) .

وهكذا نفهم ان ما جاء في هذه الآية إنما هو أمر مخصص ، يخص حالة بعينها هي حالة الذين آمنوا بالكتب الإلهية السابقة وعملوا بها ، وعرفوا منها نبوة محمد ﷺ ، وآمنوا به ثم ماتوا قبل بعثته .

وهكذا نعلم أن السنة تضع لنا أي حقيقة قرآنية ، في صيغة مترابطة مع الواقع العملي للحياة المتجددة وهذا المنهج يفتح آفاق التقدم العلمي ، حيث يعلمنا كيف ترتب أحداث التاريخ وترقب ، ما هو غيب

منها حتى يحىء أوانه .

ولكن الاسكافي — رحمه الله — لم يربط اجتهاده في فهم الآيات المتشابهات بما يفسرها من السنة .

ولو فعل الاسكافي ذلك ، لكان كتابه أكثر نفعاً ، وأوضح بياناً ، ولكل درجات مما عملوا .

والحمد لله رب العالمين

٤ — مع تاج القراء الكرمانى في نفس التكرار عن القرآن

التكرار في كلام البشر ، هو استعمال قدر من الكلام ، مرات كثيرة ، حيث تكفي مرة واحدة .

أما القرآن فإن كل صلة بين الكثير والقليل من كلماته ، دائمة التجدد ، موصولة التفرد .

وكلام هذا شأنه ، لا مكان فيه للتكرار وإنما هو الإحكام والتفصيل ، الذي لا يقدر على مثله إلا الله وحده .

ولقد بين تاج القراء الكرمانى بعض الأصول التي يقوم عليها هذا النظم ، الذي لا تكرار فيه ، مهما تعدد ، مواضع الآيات ومواضع أجزائها في جملة القرآن وتفصيله (٥١)

فمما بين الكرمانى ، أنه ينفي التكرار عن الكلمة القرآنية المتعددة المواضع ، انه نظر في قوله تعالى :

« صراط الذين أنعمت عليهم غير

المغضوب عليهم ولا الضالين

٧ : الفاتحة

ثم قال :

إن كلمة (عليهم) لا تكرر فيها ، لأن كل واحد من موضعها متصل بفعل غير الآخر ، وهو الانعام والغضب .

فإذا نظرنا إلى الأسس التركيبية ، التي تقوم عليها هذه الحقيقة ، التي تحدث عنها الكرمانى ، فإننا نعود — معا — إلى القواعد الثلاث التي تحدثنا عنها من قبل .

١ — فكلمة (عليهم) ثابتة على نصها مهما تهدد مواضعها .

٢ — وهذه الكلمة متصلة بمجديد من المقاصد ، مع كل موضع نجدها به .

٣ — وهناك إعجاز في ترتيب هذه المقاصد لأن قوله تعالى :

« صراط الدين أنعمت عليهم »

قد اتصلت فيه كلمة عليهم (بالإنعام) وهو موضعها الأول في سورة الفاتحة .

أما قوله تعالى :

« غير المغضوب عليهم ولا الضالين »

فقد اتصلت فيه كلمة عليهم بالغضب والضللال

ولقد جاء في السنة قول النبي ﷺ ، لما خلق الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش إن رحمتي تغلب غضبي (٥٢)

فبذلك ندرك سر الإعجاز في ترتيب الإنعام قبل الغضب .

والنظر في ترتيب كل كلمة قرآنية متعددة المواضع ، يعلمنا البحث العلمي ،

في مكونات السموات والأرض ، وكيف نجده كل نوع من أنواع الخلق ، ثابتاً على نوعه شكلاً ومضموناً ، ثم نجده متجدد الصلة بكل موضع من مواضعه في الوجود ثم نجده مرتباً في مجتمع يخصه .

ويتحدث الكرمانى عن مواضع قوله تعالى « من شر » كما نجدها في سورة الفلق ، حيث ارتبطت في الآية الثانية بالشر كله حيث قال تعالى « من شر ما خلق »

ثم تبع ذلك ما هو أصغر مما قبله وأكبر مما بعده ، حيث جاء ذكر القبر إذا أظلم .

« ومن شر غاسق إذا وقب » ثم تبعه أصغر منه وأكبر مما بعده حيث جاء ذكر

الساحرات ومن يجمع بين الحمد ، وبين عمل من الأعمال الناتجة منه وهو السحر .

« ومن شر النفاثات في العقد »

وأخيراً جاء ذكر الحاسد إذا حسد ، لأنه لم يبلغ ما بلغته النفاثات في العقد إذ

جمع بين الحسد والعمل به ، بينما هذه الآية الأخيرة جاء فيها الاستعاذة بالله من الحاسد

إذا حسد ، فهذا أخف لأنه فيه شرطاً إذا وقع فعلاً ، فقد سبقته الاستعاذة منه ،

وكهذا تأخر ترتيبه ، حيث ختمت هذه السورة بقوله تعالى : « ومن شر حاسد إذا

حسد »

أما الذي جعلنا نفهم أن الغاسق إذا وقب هو القمر إذا دخل في الظلام ، فهو

حديث نبوي صحيح الاسناد .

عن عائشة رضي الله عنها قالت ، نظر رسول الله ﷺ إلى القمر لما طلع فقال

ياعائشة استعيزي بالله من شر هذا ، فإن هذا هو الفاسق إذا وقب (٥٤) .

فهذا تفسير لمعنى من معاني الشر وبيان لسر من أسرار الخلق ، هو أن في كثير من المخلوقات خير من وجه وشره من وجه آخر .

فالقمر إذا هو منزه فهذا مما أودع الله فيه من الخير ، بينما هو إذا ذهب نوره ، كما هو شأنه عند قيام الساعة ، فهذا شر على الكافرين .

ولو ربط الكرماني بين تفسيره لنظم القرآن وما فيه من نفي التكرار ، عما تتعدد مواضعه من آياته وأجزائها ، وبين ما يفسر من السنة لزادنا بيانا كما رأينا .

أما أصول التقدم العلمي ، التي يقدمها لنا إعجاز القرآن ، وما يفسره من السنن النبوية ، والسنن الكونية ، فهي — هنا — في هذا الترابط بين الحقائق العلمية المتنوعة ، التي نجدها في علوم بشرية مختلفة ، مثل الفلسفة التي تختص بالبحث في الخير والشر ، ومثل الفلك الذي هو علمي كوني مستقل بذاته ، ومثل الحسد الذي يستقل به علم الأخلاق .

فالربط بين هذه العلوم كلها ، في علاقات مترابطة ، نوع من أنواع الإعجاز القرآني ، الذي يعيد التفكير العلمي إلى فطرته الأصلية من الوحدة الجامعة ، حيث لا مكان للتناقض بين الحقائق ، وإن تفرقت بها الاختصاصات العلمية المختلفة .

٥ — مع عبد القاهر الجرجاني ، ونظريته في نظم القرآن

تتلخص نظرية عبد القاهر الجرجاني في أن الإعجاز القرآني ، يعود في جملة وتفصيله إلى النظم (٥٥)

والنظم كما تبينه عبد القاهر الجرجاني في آيات القرآن وسوره ، تجتمع فيه كل وجوه الإعجاز ، بحيث لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله ، مع أن البشر أنفسهم لا تقاس بلاغتهم إلا من خلال نظمهم لكلامهم فهيات أن يأتي المخلوقون بمثل نظم الخالق لكلامه !!

يقول عبد القاهر الجرجاني رحمه الله معلوم ان ليس النظم سوى تعلق الكلم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض .

والكلمة ثلاث ، اسم وفعل وحرف ، وللتعلق فيما بينها ، طرق معلومة ، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام :

١ — تعلق اسم باسم

٢ — تعلق اسم بفعل

٣ — تعلق حرف بهما

ثم يسهب عبد القاهر — رحمه الله — في بيان نظريته ، مبينا أن أسبابها هو حسن التصرف في وجوه النحو .

ويصل عبد القاهر رحمه الله ، بين وجوب نظرنا للمعاني المجردة للكلمات ، مع نظرنا للنواحي التركيبية ، في نظم الكلام ، فيقرر أن المزية للكلام إنما هي في نظمه باعتبار ملائمة معنى اللفظة التي تليها ، وليس الفضل والمزية في الكلام أن ننظر في مجرد معناه (٥٦) .

وخلاصة ما يقرره عبد القاهر

١ — انه لا فصل بين الكلام ومعناه ، ولا بين الصورة والمحتوى .

٢ — ان البلاغة في النظم لا في الكلمة المفردة ولا في مجرد المعاني .

٣ — ان النظم هو توخي معاني النحو ، وأحكامه وفروقه فيما بين معاني الكلم .

٤ — ولذلك أخذ عبد القاهر يعرض لوجوه تركيب الكلام ، وفق أحكام النحو ، مستنبطاً الفروق بينها ، عارضاً لأسرار المزية والحسن والبلاغة فيها^(٥٧) .

ولقد اعترض طائفة من العلماء المعاصرين له ، على أساس أن النحو لا بد منه في كلام الله ، ثم في كلام البشر .

ولكن الجرجاني بين لهم انه لا يرى مجالاً للنظر في النظم ، إلا فيما يتعلق بالنحو كما سبق في كلامه من قبل ، واحتج بأن عمل النحو في الكلام المعجز وغير المعجز لا يغير حقيقة كل منهما .

ثم نجد الجرجاني رحمه الله ينظر في قول الله تعالى

« وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين » .

ثم يقول ما معناه ان الإعجاز يتجلى في ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض .

ثم يقول انظر في كلمة (ابلعي) واعتبرها وحدها من غير أن ننظر في ما قبلها

وما بعدها ، في السياق والنظم حتى تظهر البلاغة ، ويتجلى الإعجاز ونقول — معا — في أثناء عرضنا لكلام الجرجاني ، إن كلمة ابلعي معجزة في ذاتها ، لأنها تدلنا على حقيقة المياه الجوفية ، قبل اكتشافها أخيراً . والجرجاني لا ينفي الإعجاز في كلمات القرآن وهي فرادى ، وإنما يقول إن الإعجاز يزداد أثره ، وتظهر مزاياه كاملة في النظم والترتيب

فهو يقول :

هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهي بمكانها من الآية^(٥٨)

والحق مع الجرجاني في ذلك ، فالنظم يزيد وجوه الإعجاز ، لأنه يجمعهما كلها في صعيد واحد .

ولكن الحقيقة ، ان وجوه النظم في القرآن ، تظهر في الكلمات وهي فرادى كما تزداد في الكلمات وهي متصل بعضها ببعض ، ثم إذا أمعنت النظر في أجزاء الكلام من أحرف وجملة — صغيرة أو كبيرة وجدنا في كل شيء من ذلك — وجوها من الإعجاز يدل بعضها على بعض .

ولقد لخص الفخر الرازي كتاب دلائل الإعجاز تحت عنوان جديد هو نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز .

فحذا حذو الجرجاني في قوله

النظم عبارة عن توخي معاني النحو بين الكلم^(٥٩) .

ثم ختم كتابه هذا بفصول بين فيها أن القرآن لا تكرر فيه (٦٠).

وهنا نعود إلى مناقشة عبد القاهر الجرجاني ، في اتخاذه علم النحو سببا أساسيا في تحقق الإعجاز في نظم القرآن .

ان ما وصل إليه الفخر الرازي في نهاية تلخيصه ، لنظرية النظم للجرجاني وهو نفيه للتكرار في القرآن ، هو الباب الذي ندخل منه إلى سر الإعجاز في نظم القرآن .

وسنرى أن هذا السر ، هو مواضع الكلم .

ذلك أن معاني النحو وتراكيب الصرف في كلام البشر يعملان معا — على توزيع حروف اللغة ، في مواضعها المتجددة من الكلمات ، وجمع بعضها هنا بينما هي متفرقة هناك .

وبذلك نجد حروف الأبجدية العربية وهي بضع وعشرون حرفا هي التي تتكون منها مئات الألوف من الكلمات .
فالنحو يربط المعاني

والصرف يتولى وضع كل حرف بموضعه وترتيبه في كل كلمة — ثم تتخذ كل كلمة موضعها — كذلك — بين الكلمات وبذلك يتفاضل كلام البشر بمقدار مناسبة كل كلمة لموضعها بين الكلام وحسن نظمها فيه .

فإذا خلا كلام البشر من الحشو كان بعيدا عن التناثر في موضع كلماته ، فهذا

مجال الفضل بين أي كلام بشري وغيره من سائر كلام البشر (٦١)

غير أن البشر ، لا يستطيعون أن يجعلوا كل كلمة — من كلماته ، ثابتة على مبنائها ومعناها ، وهذا أول عائق يحول بينهم وبين التحكم الكامل ، في نظم كلماتهم فيما بينها ، على نفس مستوى نظم الكلمات ، من الحروف ، التي تتكون منها .

ونستطيع أن نفهم ذلك ، بأن نعلم أن الله جعل الكلام كله ، من حيث النظم على ثلاثة أحوال .

أولا : كلام الله تعالى ، وفيه تتحرك الحروف بمواضعها من الكلمات ، ثم تتحرك الكلمات بمواضعها فيما بينها ، بحيث لو مضينا مع كل كلمة قرآنية واحدة وقد جاءت بمواضع كثيرة ، فإنها تكون ثابتة على نصها الواحد ، ثم تكون متجددة الارتباطات بكل موضع وأخيرا تكون مرتبة فيما تقدم لنا من المعلومات ، التي تبين لنا ترتيبها ، ما يتصل به من حقائق الوجود كله .
وهذه شروط معجزة لا ينبغي أن نجد مثلها في كلام البشر .

ثانيا : كلام النبوة ، في كل ما نطق به النبي ﷺ ، من كلمات الوحي التالي للقرآن ، وهو السنة ، وهذا النوع من الكلام ليس من الكلام العادي لعامة البشر ، ولكنه هو كلام النبوة ، الذي أنطق الله به رسوله ﷺ ، بوصفه خاتم أنبيائه ورسوله .

ومن معجزات كلام النبوة ، من حيث التركيب أن أي كلمة جاءت في القرآن ثم جاء ما يماثلها في السنة ، فإنها تربط بين ما يتصل بها من مقاصد القرآن والسنة ، برباط يظهر معه التنوع في كل منهما ، مع وحدة — الأصول — المعلقة بمعانيهما معا ، بحيث يظل الناس بحاجة دائمة إليهما معا .

ولننظر إلى كلمة — الجار — بقوله تعالى :

١ « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل » .

٣٦ : النساء

٣ — « وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وأني جار لكم فلما تراءت الفتنان نكص على عقبيه وقال إن براء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب »

٤٨ : الأنفال

فلهذا المواضع القرآنية الثلاثة ، التي جاءت بها كلمة الجار وكلمة جار ، قد أجهلت لنا حقوق الجيران الصالحين ، ونفرتنا من جوار الشيطان لعنه الله .

ثم جاءت السنة ، بتفصيل هذه المعاني المجملة ، كما نجد في قول النبي ﷺ .

١ — عز جارك وجل ثناؤك
٢ — لا يمنع جار جاره ان يغرز خشبه في جداره

٣ — الجار أحق بالجار

وقوله ﷺ

٤ — الجار أحق بسبقه (٦٢)

وقوله ﷺ

٥ — الجار أحق بشفعة جاره

وقوله ﷺ

٦ — جار الدار أحق بالدار

وقوله ﷺ

٧ — من سعادة المرء الجار الصالح (٦٣)

فلقد تفرد كل حديث من هذه الأحاديث ، بإضافة حقيقة جديدة متصلة بحق الجار ، وبذلك جاء في السنة ، تفصيل ما أجهل في القرآن .

وهذا الترابط والتجدد ، والتفاعل بين كلمات القرآن والسنة يجعل لحقيقة النظم القرآني امتدادا عمليا في السنة باعتبارها تفسيرا للقرآن ووحيا مصاحبا له .

ثالثا : كلام البشر نعمة من الله على عباده ، ولكن الله حد له حدودا لا ينبغي له أن يتعداها .

وتلك الحدود ، لا ينبغي للنظم فيها ، أن يعلو عن مجرد الحركة للحروف بمواضعها من الكلمات .

أما أن يكون للكلمات البشرية ، مواضع متجددة الصلات ، مرتبة الأهداف ، على قدر ورود كل كلمة منها وتفرقها في ثنايا الكلام ، فليس من ذلك شيء ، وإنما هو وجه من وجوه الإعجاز القرآني ، كما رأينا ، من قبل .

وأما أن يكون للكلمات البشرية ، امتداد

متجدد في شروحيها ، فليس لها من ذلك شيء ، وإنما هو شيء خص الله به السنّة ، باعتبارها تفسيراً لكلام الله تعالى .

هذه طائفة من أسس التركيب للوحي كله من قرآن وسنّة ، وهي تقوم على مواضع الكلمة بما فيها من صرف ونحو ، وتقدير كمي وكيفي معا ، لحركة الكثير والقليل من النصوص القرآنية ، وتأثيرها العظيم في السنّة ، وفي صياغتها لنواحي العظمة في الحياة الإسلامية ، على عهد النبي والذين معه .

ولقد فتح لنا الجرجاني هذه الأبواب جميعا ، مع أنه وقف بنا قريبا من بدايتها . وكلام الجرجاني عن النظم ، يفتح للعلماء مجالات التقدم في اللغة العلمية ، لأنه يعلمهم ، كيف يتخلصون من الصعوبات التي تواجههم في الاتفاق على مصطلحات العلوم ، التي تتغير على قدر الاختلاف في مستويات الوصول الى حقائق كل علم بين الباحثين فيه بسائر دول العالم . بالإعجاز في نظم القرآن ، وترتيب كلماته يقدم للعلماء دروسا لا يستطيعون الاحاطة بها ، أو الوصول إلى مثلها ، في تدوين مصطلحاتهم العلمية .

ولكن حسب هؤلاء العلماء ، أن يتعلموا من القرآن كيف يفكرون في ترقيم مرات استعمال كل مصطلح علمي ، وأن يرمزوا لكل مرة من هذه المرات ، بما يفيد في بيان درجتها ونوعها من حيث الظن أو الافتراض أو اليقين العلمي وبذلك يكون لكل

مصطلح علمي تاريخ مسلسل يستطيع الباحثون في مختلف فترات التاريخ أن يقفوا عنده ، ويفيدوا منه .

وهذا قليل من كثير ، يمكن أن يفيد العلماء ، من الإعجاز في نظم القرآن ، وترتيب كلماته ، فضلا عن شروحه في السنّة ، وبما فيها من الترابط الكلي والجزئي ، مع آياته البينات .

٦ - ابن حزم الأندلسي

وكلامه في القدر المعجز من القرآن

لقد كان لابن حزم رحمه الله موقف راجح في قضية القدر المعجز ، من القرآن وسنعرض لهذه القضية ، بشيء من البيان ، ثم نعود إلى موقف ابن حزم منها^(٦٤) والقدر المعجز من القرآن قضية مرتبطة بآيات التحدي التي جاءت لبيان عجز البشر ، عن الاتيان بمثل كلام الخالق سبحانه وتعالى .

ومن ذلك قول الله تعالى :

« قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »

٨٨ : الإسراء

وهذه الآية تحمل معها الحكم القاطع في القدر المعجز من القرآن ذلك أن كلمة القرآن تطلق على الكثير والقليل من الآيات والسور .

يقول الله تعالى :

« وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون »

٢٠٤ : الأعراف

ويقول سبحانه :

« وما تملو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه »

٦١ : يونس

وهكذا نفهم أن أي قدر من القرآن يسمى قرآنا

ويقول الله تعالى :

« وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله »

٣٧ : يونس

وهكذا نعلم ان اسم القرآن ، يطلق على القرآن كله ، كما رأينا أنه يطلق على أي قدر منه .

فهذه قضية واضحة لا لبس فيها .

ولكن المتكلمين كعادتهم ، جعلوها مجالا للجدل ، الذي لا خير فيه .

ومما جاء عن هذه القضية ، بكتاب البرهان في علوم القرآن ، للزركشي أنه قال : قال القاضي أبو بكر : ذهب عامة أصحابنا ، وهو قول أبي الحسن الأشعري في كتبه ، إلى أن أقل ما يعجز عنه من القرآن ، السورة قصيرة كانت أو طويلة ، أو كان بقدرها .

قال : فإذا كانت الآية بقدر حروف سورة ، وإن كانت كسورة الكوثر فذلك معجز .

قال : ولم يقم دليل على عجزهم عن المعارضة ، في أقل من هذا القدر .

وذهبت المعتزلة إلى أن كل سورة برأسها فهي معجزة . (٦٥)

ولقد ثار — ابن حزم — رحمه الله — على هذه الآراء المتعارضة في هذه القضية التي لا تحتل المرء فقال :

لا يختلف اثنان ، في أن كل شيء من القرآن ، معجز .

ثم يشعر ابن حزم ، بأن الإعجاز في حقيقته ، مرتبط بنظم القرآن وتركيبه ، وترتيب كلماته في آياته وآياته في سورة وسورة في المصحف .

ولكن هذا الشعور لا يظهر في كلامه ، مرتبطا بقضية النظم ، الا على وجه الإجمال ، لا التفصيل .

لذلك فهو يتوجه الى الذين قالوا إن القدر المعجز من القرآن ، هو ما كان مثل أقصر سورة وهي سورة الكوثر فيقول لهم : إن سورة الكوثر عشر كلمات اثنان وأربعون حرفا .

وقد قال الله تعالى : « وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأنباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان »

١٦٣ : النساء

اثنا عشرة كلمة ، اثنان وسبعون حرفا .
وان اقتصرنا على الأسماء فقط ، كانت عشر كلمات اثنين وستين حرفا ، فهذا أكثر كلمات وحروفا من سورة الكوثر .

فينبغي أن يكون هذا معجزاً عندكم ويكون
« ولكم في القصص حياة »
١٧٩ : البقرة

غير معجز ...

ثم يقول ابن حزم ، عن الآية التي جاء
فيها أسماء الرسل صلوات الله عليهم
فإن قالوا إن هذا غير معجز تركوا قولهم
في إعجاز ، مقدار أقل من سورة في عدد
الكلمات وعدد الحروف .

وإن قالوا بل هو معجز تركوا قولهم في أنه
في أعلى درج البلاغة .
وفي موضع آخر يتساءل ابن حزم عن
الآية نفسها فيقول :

فإن قالوا ليس معجزاً كفروا .
وإن قالوا أنه معجز صدقوا وسئلوا : هل
على شروطكم في أعلى درج البلاغة ؟
وفي موضع آخر يتساءل ابن حزم عن
الآية نفسها فيقول :

فإن قالوا نعم ، كابروا وكفوا مؤونتهم لأنها أسماء
رجال فقط ، وليس هذا على شرطهم في
البلاغة .

وينتهي كلام ابن حزم هنا ، حيث يتبين
لنا أنه لم يصل إلى سر النظم ، وأصل
التركيب والترتيب لكلمات القرآن فإذا هو
يقول :

وأيضاً فلو كان إعجاز القرآن لأنه في
أعلى درج البلاغة ، لكان بمنزلة كلام
الحسن أو سهل ابن هارون والجاحظ وشعر
أمرئ القيس .

ومعاذ الله من هذا لأن كل ما يسبق في

طبيعته لم يؤمن من أن يأتي من بمثله
ضرورة ، فلا بد لهم من هذه الخطأ ، أو من
المصير إلى قولنا : إن الله تعالى منع من
معارضته فقط !!

ويعلق على كلام ابن حزم هنا ، العالم
المعاصر الأستاذ/ أحمد عز الدين عبد الله
خلف الله في كتابه القيم (القرآن يتحدث)
فيقول :

كان ابن حزم يذهب في الإعجاز ،
مذهب المعتزلة في الصرفة^(٦٦)

هكذا يعلق هذا العلم المعاصر ، على
موقف ابن حزم كما ظهر لنا في هذا السياق
ولكنني قد أرى أن ابن حزم ، لم يرد بكلامه
هذا الصرفة بمعناها المعروف عند النظام^(٦٧)
وغيره من المعتزلة ، وإنما أراد أن في نظم القرآن
سراً لم يصل هو إليه !! ولذلك يقول ابن
حزم في موضع آخر عن قولهم إن القرآن في
أعلى درج البلاغة .

إن كنتم تريدون أن الله بلغ ما أراد فنعم ،
وإن كنتم تريدون أن القرآن في أعلى درج
البلاغة في كلام المخلوقين فلا ، لأنه ليس من
نوع كلام المخلوقين ، لا من أعلاه ولا من
أدناه ولا من أوسطه^(٦٨) .

وينتهي هذا القدر من كلام ابن حزم
لنقول معاً :

إن كلام ابن حزم عن مجازية القرآن
لكلام المخلوقين ، من أعلاه وأدناه وأوسطه
يصل بنا مباشرة إلى إعجاز التركيب
والترتيب ، في كل كلمات القرآن ، وإن لم
يشاهده ابن حزم مشاهدة ويعاينه معاينة .

انظر معي أيها القارئ العزيز ، إلى أي كلمة من قوله تعالى :

« وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان »

لقد اخترت أول كلمة متوسطة بين كلمتين هي قوله تعالى (وأيوب) فلننظر في مواضعها القرآنية ، لنكشف معا ، بعض أسس الإعجاز الإلهي ، في نظم القرآن وتركيبه وترتيب كلماته .

إن لكلمة (أيوب) أربعة مواضع ، في القرآن كله ، كما هو مرتب في المصحف . بقوله تعالى :

١ - « وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأنبياء وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان »

النساء : ١٦٣

لقد جمع الله هؤلاء الرسل والأنبياء في هذه الآية ، ونحن نعجز أن نكشف بعض أسرار الإعجاز في النظم والتركيب والترتيب ، طالما نحن في هذه الكثرة من الأسماء ، حيث لا نستطيع النفاذ إلى ما يخص كل اسم بذاته ، في موضعه وترتيبه .

ولكننا حين نذهب الى الموضع التالي لكلمة (أيوب) يتبين لنا ما لم نكن نعلمه من قبل .

٢ - « وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك عليم حكيم ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى

هارون وكذلك نجزي المحسنين »

٨٣ - ٨٤ : الأنعام

لقد تبينت لنا ملامح جديدة تحدد لنا نسب أيوب وصلته بأبائه وأجداده ، وفي هذا زيادة واضحة ، على ما سبق في سورة النساء بالآية ١٦٣

ونذهب الى الموضع الثالث لكلمة أيوب .

٣ - « وأيوب إذ نادى ربه أي مسني الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين » ٨٣ - ٨٤ : الأنبياء

لقد جاء الموضع الثالث لكلمة أيوب بصلة جديدة ، بقضية مشهورة في حياته وهي قصة مرضه .

ولقد جاء المرض هنا مجعلا ، حيث قوله الله تعالى حكاية عن أيوب عليه السلام . أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين .

ثم يبين السياق أن الله شفاه وعوضه ما فقد من أهل ومال ، وزاده ، وضاعف له في الخير ، ليكون في هذا ذكرى للعابدين . وهكذا نتجه الى الموضع الرابع والأخير لكلمة - أيوب -

٤ - « واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أي مسني الشيطان بنصب وعذاب اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب » ٤١ - ٤٣ : ص

لقد زاد الله المسافة الزمانية المكانية ، وضوحا وظهورا ، بين عهد أيوب وعهد خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ وذلك في قوله تعالى :

« واذكر عبدنا أيوب »

ثم بين الله سبحانه حقيقة الداء والدواء فقال حكاية عن عبده أيوب عليه السلام « أني مسني الشيطان بنصب وعذاب »

أي أن المرض كان مرضا له أسباب عضوية أحاط الله بعلمها وبأسبابها وبدوائها حيث قال : « اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب » .

وبعد أن كانت الذكرى للعابدين ، في سورة الأنبياء ، أصبحت الذكرى لأولي الألباب في سورة (ص)

لقد سرنا مع الحركة الدائبة والصلات المتجددة ، بين كلمة أيوب لقد ظهر لنا هذا التسلسل المترابط ، المتزايد في الفعل ، والتأثير ، والتشخيص لتطور الحياة الإنسانية ، من حيث الزمان والمكان ، مع ثبات القيم الأصلية ، والتكاليف الشرعية وأسباب السعادة في الدنيا والآخرة ، وكلها في اللجوء إلى الله ، وإفراده بالحب والعبادة والضرعة والدعاء .

ولقد كان هذا كله ، خاصا بأربعة مواضع لكلمة قرآنية واحدة .

وهذا يدلنا أن في كل كلمة من كلمات القرآن ، مع كثرة المواضع من حيث الكم

والكيف والمبنى والمعنى والترتيب الجديد ، ما يخصها من وجوه الإعجاز وبذلك نرى بأعيننا أن القرآن معجز إعجازا متجددا ، على قدر عدد كلماته فلكل كلمة إعجازها في ذاتها ، وإعجازها في تعلقها بغيرها .

لقد أوشك ابن حزم رحمه الله أن يعاين هذه المعاني ، ويشهد هذه الشهادة ولكنه وقف عند الوصف العام فقال :

إن كلام الله من أعلاه وأدناه وأوسطه ليس كمثله كلام المخلوقين .

ومثل هذا البيان لا ينبغي أن يتفق معه أن ابن حزم تورط مع النظام في القول بالصرفة ، وإنما هو أراد أن القرآن معجز في كثيره وقليله ، ولكنه أي ابن حزم ، لم يصل إلى أساس هذا النظم القرآني الذي حاولنا معا أن نراه الآن لننفذ منه إلى وحدة نظام التركيبي في خلق الله ووحيه ، مع استقلال كل من الخلق والوحي بحقائقه الذاتية .

وهذا كله يفيد العلماء ، حيث يفتح أمامهم آفاق التقدم العلمي ، وهو يعلمهم أن حقائق وحي الله ، لا ينبغي أبدا أن تنفصل عن حقائق خلقه .

فالتقدم العلمي لا يتم في حدود العلوم المادية وحدها .

بل لا بد من الربط بين الإعجاز الإلهي في وحي الله ، والإعجاز الإلهي في خلق الله وبذلك تتكامل منافع التقدم العلمي ، ويتعلم العلماء أن الفصل بين علوم الدين وعلوم الدنيا ، ينطوي على تأخر في أنواع

حول هذه الحقائق تحدث ابن برجان فقال :

ما قال النبي ﷺ من شيء ، فهو في القرآن وفيه أصله قرب أو بعد فهمه ، وعمه من عمه عنه (٦٩)

ويقول الزركشي عند تقديمه لابن برجان في كتابه البرهان :

اعلم أن القرآن والحديث أبدا متعاضدان على استيفاء الحق وإخراجه من مدارج الحكمة ، حتى إن كل واحد منهما يخصص عموم الآخر ويبين إجماله (٧٠)

ألا تسمع إلى قوله ﷺ في حديث الرجم

لأقضين بينكما بكتاب الله وليس في نص كتاب الله الرجم .

ويقول ابن برجان
وقد أقسم النبي ليقضين بينهما بكتاب الله

ثم يقول ولكن الرجم في تعريض مجمل في قوله تعالى :

« ويدراً عنها العذاب »

٨ : النور

وأما تعيين الرجم من عموم ذكر العذاب ، وتفسير هذا المجمل فهو مبين بحكم الرسول وبأمره به ، وموجود في عموم قول الله تعالى :

« وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »

٧ : الحشر

الاستفادة بحقائق العلوم والحقيقة أن الإعجاز القرآني ، يعلمنا كيف نصل بين ما ينفع الإنسان من علوم الدنيا ، وبين ما ينفعه من علوم الآخرة وبين ما ينفع الإنسان من حقائق المادة والطاقة وغيرهما ، مع اتصال هذا كله ، بحقائق الأخلاق الفاضلة ، والسياسة الرشيدة ، للحياة الإنسانية في كل مجالات الحياة .

٧ — مع ابن برجان وبيانه لمعاودة السنة للقرآن :

أمر الله ورسوله ﷺ ، أن يتبع الوحي ، الذي أوحاه إليه وخصه بإبلاغه للناس كافة .

وجاء هذا الأمر ، في آيات كثيرة ، منها قوله تعالى :

« اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين »
١٠٦ : الأنعام

والوحي هو القرآن والسنة وتتصل الآيات حتى يقول الله للأمة « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم »

١٢١ : الأنعام

والجدل في كلام البشر ، اختلاف لا خير فيه

ثم تتصل الآيات إلى قوله تعالى :
« وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتي مثلما أوتي رسل الله والله أعلم حيث يجعل رسالته » ١٢٤ : الأنعام

وقوله :

« من يطع الرسول فقد أطاع الله »

٨٠ : النساء

معاضدة السنة للقرآن بالقول والفعل
والتقرير :

وينتهي هذا القدر من بيان ابن برجان —
رحمه الله — لنقول — معا — إن في هذا
البيان نوعا من أنواع معاضدة السنة للقرآن
هو تفسير كلمة قرآنية مجملة ، بأقوال
وأعمال وتقارير مخصوصة ، لا مصدر لها
إلا السنة — بكل أقسامها من قول النبي ،
وفعله ، وتقديره .

وفي هذه القضية ، التي أثارها ابن برجان
بيان لأنواع السنة جميعا ، وهي أقوال النبي ،
وأفعاله ، وتقديراته .

عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني ،
أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال : إن ابني
كان عسيفا على هذا ، فزني بامرأته
فأخبروني أن على ابني الرجم ، فافتديت منه
بوليدة ومائة شاه ، ثم أخبرني أهل العلم أن
على ابني جلد مائة ، وتغريب عام ، وأن على
امرأة هذا الرجم فاقض بيننا بكتاب الله .

قال النبي ﷺ

والذي نفسي بيده لأقضين بينكما
بكتاب الله

أما الفتى والوليدة فردّ عليك

وأما ابنك فعليه جلد مائة وتغريب عام
ثم قال لرجل من أسلم : يقال له أنيس
قم يا أنيس فاسأل امرأة هذا فإن اعترفت

فارجمها (٧١)

إن هذا الحديث السابق يبين لنا أنواع السنة
الثلاثة وهي :

١ — السنة القولية

٢ — السنة العملية

٣ — السنة التقريرية

فأما السنة القولية فمنها ما نطق به النبي
ﷺ ، في هذا الحديث حيث قال :
١ — والذي نفسي بيده لأقضين بينكما
بكتاب الله

فعلمنا من ذلك أن الذي جاء مجملا في
قوله تعالى : « ويدراً عنها العذاب »

قد جاء بيانه مفصلا في هذا الحديث

ثم قال النبي ﷺ

٢ — أما الفتى والوليدة فردّ عليك

وأما ابنك فعليه جلد مائة وتغريب عام
وقد جاء الجلد مجملا في قوله تعالى :

« الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما
مائة جلده »

أما تغريب عام ، فهو زيادة خص الله بها
السنة ، لنظل بحاجة إليها مع القرآن لا
يفترقان أبدا ، في إلزامنا بهما .

ثم قال النبي ﷺ .

٣ — قم يا أنيس فاسأل امرأة هذا فإن
اعترفت فارجمها .

وأما السنة العملية ، فمنها ما تضمنه هذا
الحديث ، من الأعمال المترتبة على أقوال
النبي ﷺ :

أولا : رد الغنم والوليدة إلى الوالد .

ثانيا : جلد الزاني غير المحصن وتغريبه عاما
ثالثا : اشتراط الاعتراف ، لإقامة حد الرجم
على الزانية المحصنة ، ما لم يكن هناك أربعة
شهود عدول .

ومن عظمة الإسلام ، أنه إذا اعترف
أحد أنه زنى بامرأة ، فأنكرت هي ذلك ،
ولم تعترف به ، فإنه يقام عليه الحد
لاعترافه ، ولا يقام عليها لعدم اعترافها .

فقد روى سهل بن سعد ، أن رجلا جاء
إلى النبي ﷺ فقال : انه قد زنى بامرأة
سمّاها فأرسل النبي ﷺ إلى المرأة فدعاها فساها
فأنكرت ، فحده وتركها (٧٢)

رابعا : تعددت مفاهيم الحد الخاص بالزاني
المحصن من جهة جلده ورجمه ، أو رجمه
فقط والحديث السابق ، حجة للذين لا
يرون الجمع بين الجلد والرجم للزاني
المحصن ، ومنهم أبو حنيفة ومالك
والشافعي (٧٣)

وأما السنة التقريرية ، فمنها ما تضمنه
هذا الحديث ، من إقرار النبي ﷺ وهو
على وجوه .

١ — أقر النبي ﷺ ، أهل العلم ،
الذين قالوا لوالد الشاب الزاني ، إن على ابنه
جلد مائة وتغريب عام .

وهذا الإقرار لا يمنع كون هذا الحكم ،
قد جاء أصلا من عند الله ، وليس رأيا جاء
به أهل العلم من عند أنفسهم .

فالإقرار هنا بمثابة التصديق لهم ، أنهم
أصابوا حكم الله .

٢ — قال أهل العلم لوالد الزاني ان على المرأة

المحصنة الرجم .

ولكن النبي ﷺ لم يقرهم على هذه
الفتوى ، إلا بشرط هام جدا هو اعترافها
فقال : « فإن اعترفت فارجمها »

وهكذا نعلم أن النبي ﷺ لا يقر كل ما
يصدر من صحابته على اطلاقه وإنما قد
يكون تقريره موافقا لهم ، أو يكون فيه اتمام
لأمر لم يدركوه .

والتقرير له أنواع أهمها نوعان هما

١ — التقرير على الأقوال مثل ما روى أحمد
في قصة معمر انه اعترف بالزنى ، أمام
النبي ﷺ ثلاثا ، كل ذلك يرده رسول الله
ﷺ ، فقال له أبو بكر إنك إن اعترفت
الرابعة — رجمك رسول الله ﷺ احتج به
الحنفية والحنابلة ، على أن العدد معتبر في
الإقرار بالزنا من جهتين

الأولى : أن ذلك مما علمه أبو بكر من حال
رسول الله ﷺ

الثانية : أن النبي ﷺ ، أقر ذلك ولم
يخطئ قائله .

٢ — الإقرار على الأفعال ومنه إقرار النبي
ﷺ .

خالد بن الوليد على أكل لحم الضب
ومن الإقرار على الأفعال إقرار النبي ﷺ
على الترك ، كما نقل أن عمرو بن العاص
تيمم من الجنابة في ليلة باردة ، وصلى
بأصحابه فلما أخبروا النبي ﷺ قال له :
صليت بأصحابك وأنت جنب ؟ قال :
ذكرت قول الله تعالى :

« ولا تقتلوا أنفسكم انه كان بكم

رحيما « فتيمنت ثم صليت ، فضحك النبي ﷺ ولم يأمره بالإعادة ، فكان في ذلك إقرار منه على ترك الإعادة » (٧٤)

ويتهي هذا الكلام لنقول — معا — انه إذا كان هذا التصنيف ، قد فرّق بين الإقرار على القول ، والإقرار على الفعل ، ثم جعل للإقرار على الفعل وجهين ،

هما الإقرار على الفعل المعمول به ، والإقرار على ترك الفعل ، فإننا مع ذلك نلاحظ في قصة عمرو أن النبي ﷺ ، أقره على الاجتهاد في فهمه للآية السابقة — من سورة النساء :

« ولا تقتلوا أنفسكم إنه كان بكم رحيما »

٢٩ : النساء

ولو كانت هذه المحاولة من عمرو ، في تطبيق بعض معاني غير صائبة ، ما رضي منه النبي ذلك .

ونلاحظ أن النبي ﷺ ، سأله من البداية قائلا (صليت بأصحابك وأنت جنب)

فلما ذكر عمرو ما كان من اجتهاده في فهم آية من القرآن ، وانه تيمم بناء على هذا الفهم ، أقره على أمور كثيرة منها الاجتهاد في التيمم بناء على ذلك ، وترك إعادة الصلاة نتيجة لكل ما تقدم .

فهذا وغيره ، كما سبق في حديث خالد الجهني ، ما يبين لنا أن الإقرار له أحوال كثيرة تفهم من نصوص متعددة من القرآن والسنة جميعا .

وانه ربما جمعت واقعة واحدة بين الإقرار على القول أو الفعل أو بعضها ، أو الإقرار على ترك شيء أو فعل غيره ، مما لا يفهم إلا بإكثار النظر في القرآن والسنة معا .
كلمات القرآن والسنة ذات الأصول اللغوية الواحدة :

ويتصل بما سبق نوع جديد ، من أنواع معاضدة السنة للقرآن ، أساسه أن نجد لكلمة — في السنة ، أصولا قرآنية فإذا نظرنا في مواضع الكلمة الواحدة ، في القرآن ثم نظرنا بمواضعها في السنة ، وصلتنا فيها معا بمسيرة واحدة ، متصلة الفصول ، متجددة المقاصد ، تزيدنا علما كلما زدناها نظرا .

يقول ابن بركان :

إن قول النبي ﷺ

من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه (٧٥)

أصله في قوله تعالى

« هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين »

٢٤ — الذاريات

ونقول — معا — انه مما يزيد هذه الحقيقة بيانا اننا نجد القرآن بمواضع كلماته الخاصة بإكرام الضيف ، يبين أن البشر لو وكلوا إلى أنفسهم ، لأفسدوا هذه السنة الحسنة .

ففي الموضع الأول ، الذي جاء عن الضيف ، في ترتيب المصحف ، نجد قول الله تعالى حكاية عن لوط عليه السلام .

١ - « فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي
أليس منكم رجل رشيد »

٧٨ : هود

أما الموضع الثاني فهو بقوله تعالى :
« ونبئهم عن ضيف إبراهيم المكرمين
إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم
وجلون »

« قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام
عليم »

٥١ - ٥٣ : الحجر

ثم نجد الموضع الثالث : بقوله تعالى
حكاية عن آل لوط مع قومه
« قال إن هؤلاء ضيفي فلا
تفضحون »

٦٨ : الحجر

ثم نجد الموضع الرابع بقوله تعالى :
« فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية
استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا
فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه »

٧٧ : الكهف

والموضع الخامس : بقوله تعالى :
« هل أتاك حديث ضيف إبراهيم
المكرمين »

٢٤ : الذاريات

والموضع السادس : بقوله تعالى :
« ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا
أعينهم فذوقوا عذابي ونذر »

٣٧ : القمر

فهذا آخر المواضع وفيه نهاية قوم لوط ،

بعد أن تصاعد موقفهم في إيذاء لوط
وضيفه .

وإننا لنجد إبراهيم نفسه ، لم يبدأ بإكرام
الضيف منذ بداية ما جاء عن ذلك في سورة
الحجر ، وإنما جاء إكرامه لهم أخيرا في سورة
الذاريات

(فهذا مما يبين أن إبراهيم لم يخترع إكرام
الضيف من عنده ، وإنما هي سنة أوحاها
الله إليه) .

ثم نجد الخضر عليه السلام ، يكرم أهل
القرية ، مع جهلهم بوجوب إكرام الضيف
فهذا عمل يقتضي الله تعالى لعباده جميعا ،
في الدنيا ، مهما يكن شأن من أحسن منهم
ومن أساء . فالله تعالى يرزق البر والفاجر ،
في هذه الدنيا ، ويطعم المؤمن والكافر ،
حتى تقوم الساعة ، فهناك يجزي كل نفس
بما عملت .

هذه الوجوه الكثيرة ، والمقاصد
المتجددة ، التي نجدها في القرآن ، بهذا
الترتيب المعجز لها تنمات في السّنة ، لا عن
نقص في كلام الله وحاشا لله ، أن يحتاج
كلامه إلى تكملة من غيره ، ولكن عن قلة
فهمنا البشري ، لما جاء مجملا في القرآن ،
فجعل الله السّنة مبينة له حاجتنا الى التنقل
بين أنواع كثيرة من البيان ، حتى نندرج في
فهم الحقائق .

ومن أنواع البيان ، لما جاء مجملا في
القرآن قول النبي ﷺ كان إبراهيم أول

الناس ضيف الضيف (٧٦)

فإن أعياك ذلك ، فعليك بالسنة فإنها
شارحة للقرآن ، وموضحة له .
ثم يقول ابن تيمية : (٧٨)

« يجب أن يُعلم أن النبي ﷺ ، بين
لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه ،
فقوله تعالى : « لتبين للناس ما نزل
إليهم » .

٤٤ : النحل

يتناول هذا وهذا .
وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي :
حدثنا الذين كانوا يقرءون القرآن كعثمان بن
عفان ، وعبد الله بن مسعود وغيرهما : أنهم
كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات
لم يجاوزها حتى يتعلموا ما فيها من العلم
والعمل .

قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل
جميعا ، ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ
السورة (٧٩)

ثم يبين لنا ابن تيمية رحمه الله — أن
الاختلاف بين الصحابة — على التفسير
قليل جدا ، وأنه اختلاف تنوع ، وليس
اختلاف تضاد .

وذلك مثل تفسيرهم للصراط المستقيم ،
فقال بعضهم هو القرآن ، أي اتباعه فقول
النبي ﷺ ، في حديث علي الذي رواه
الترمذي ، ورواه أبو نعيم من طرق متعددة
(هو جبل الله المتين ، والذكر الحكيم ، وهو
الصراط المستقيم) (٨٠) والذي نلاحظه من

فهكذا تبين لنا السنة أصل إكرام
الضيف ، ومتى ألقى الله معانيه الجميلة ،
في وقائع الحياة الإنسانية
ويقول النبي ﷺ :
الضيافة ثلاثة أيام فما كان وراء ذلك
فهو صدقة (٧٧)

وهكذا تحدد السنة مدة إكرام الضيف .
وهذه أمور فرعية ، جعل الله بيانها من
الوحي الآخر ، وهو السنة على مقتضى نظرة
الله فينا ، وهي حينا للتنقل ، للتواتر أمامنا
المشاهد فيؤكد بعضها بعضا ، ويذكر
بعضها ببعض .

فمن أهم العلوم التي يتقدم فيها
الإنسان ، إذا نظر الى معاضدة السنة
للقرآن ، هذه العلوم الإنسانية ، التي تبين
لنا مناهج التراحم بين الناس ، وأصول
المعاملات بينهم ، وحقوق بعضهم على
بعض ، والقصاص العادل ، وكيف يقع على
من استحقه منهم .

٨ — مع ابن تيمية

« مقدمة » في أصول التفسير

يبين العلامة تقي الدين أحمد بن
عبد الحلیم المعروف بابن تيمية أن أصح
طرق التفسير ، أن يفسر القرآن بالقرآن ،
فما أجمل في موضع ، قد فسر في موضع
آخر ، وما اختصر في مكان ، فقد بسط في
مكان آخر .

في الآيات والسور ، ثم في معاني السنة التي هي امتداد للقرآن ، وتطبيق عملي له في واقع الحياة .

فهكذا ندرك ، أن هذا التنوع في أقوال الصحابة وتفسيرهم لحقائق الوحي المتصلة بوقائع الحياة ، إنما هو نتيجة عملية لتركيب الوحي من قرآن وسنة ، وتركيب المجتمع البشري ، باعتباره جزءا من خلق الله . (٨١)
فقد اهتم ابن تيمية ، ببيان اختلاف السلف في التفسير ، وأنه اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد .

وقد فصل ابن تيمية القول في هذه الحقيقة ، وبين أن فيها أنواعا من وجوه العلم .

١ — فهناك التفرع القائم على التعبير عن المراد ، بصيغ لغوية ، تدل على معان متنوعة ولكن لها أصلا واحدا .
وذلك مثل أسماء الله الحسنى فهي تدل كلها على مسمى واحد .

٢ — وهناك التفرع ، الذي يظهر عند ذكر أمر خاص ، له أشباه تتصل معه ، بأصله العام .
كما في قوله تعالى :

« ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات » .

٣٢ : فاطر

ويقول ابن تيمية رحمه الله

هذه الأصول العلمية ، التي أوردها ابن تيمية — رحمه الله — أن الوحي من قرآن وسنة ، في تكوينه لروح الأمة الإسلامية — يؤدي دوره في نظام مماثل للحقيقة التي تؤكد لنا دائما أن كل صلة بين الجزء والكل ، في خلق الله أو بين الجزء والكل في وحي الله ، لا بد أن تتضمن بابا جديدا من أبواب العلم ، يحمل معه تفسيراً خاصاً بالحقائق المتصلة به ، في أي شيء من ذلك .

فالتفاعلات المتجددة ، التي تنتج من أي تركيب جديد ، لأي قدر من عناصر المادة ، تفسر لأصحاب التخصصات العلمية المختلفة ، وجوها من التفسير لحقائق علمية كثيرة ولكنها متنوعة . من حيث اختلاف تخصصاتهم ، وتنوع الأعمال المرتبطة بها عند كل أحد منهم .

ولولا الثبات في حقيقة كل جزء من أجزاء الخلق ، مع تجدد بصلاته بمواضعه التي قدرها الله له في الكون والحياة ، ما استطاع العلماء أن يتفقوا على حقيقة علمية واحدة ، وإن تنوعت أهدافهم المنعقدة عليها ، بحكم اختلاف اتجاهاتهم العلمية .

وقد تبين لنا من قبل ، أن القرآن في تركيبه المعجز ، يقوم على الثبات في نصوصه سواء كانت هذه النصوص حرفاً أو كلمة أو جملة ، مع تجدد الحركة دائما بين أي نص من ذلك ، وبين مواضعه التي قدرها الله له

فمعلوم أن الظالم لنفسه ، يتناول المضيق للواجبات والمنتك للحرمات .
والمقتصد يتناول فاعل الواجبات ، وتارك المحرمات .

والسابق ، يدخل فيه من سبق ، فتقرب بالحسنات الواجبات .

٣ — ومعرفة سبب النزول ، يعين على فهم الآيات ، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب

ولهذا كان أصح قول للفقهاء ، أنه إذا لم يعرف ما نواه الخالف ، رجع الى سبب يمينه وما هيجه وأثارها^(٨٢)

وقولهم نزلت هذه الآية في كذا ، يراد به تارة ، أنه سبب النزول ، ويراد به تارة ، أن هذا دخل في الآية وإن لم يكن السبب كما تقول : عنى بهذه الآية .. كذا^(٨٣)

٤ — وما يتصل بالتنوع في التفسير ما يكون اللفظ فيه محتملا للأمرين ، إما لكونه مشتركا في اللغة كلفظ قسورة ، الذي يراد به الرامي ويراد به الأسد^(٨٤)
ولفظ عسمس الذي يراد به إقبال الليل وإدباره .

٥ — وما يظن به الاختلاف بين الصحابة والتابعين ، في التفسير ، وليس كذلك أن يعبروا عن المعاني بألفاظ متقاربة لا مترادفة ، فإن الترادف في اللغة قليل ، وأما في كلمات القرآن ، فهو إما نادر ، أو غير موجود ، وهذا من إعجاز القرآن .^(٨٥)

وكلام ابن تيمية هنا يذكرنا بالتفرد الدائم ، والتجدد المستمر ، أي قدر من النصوص القرآنية ، في ذاته ، أو في صلاته بمواضعه .

وهذا يذكرنا بفوائد علمية لا نخطط بكثرتها ، أوهمها النظر في كل حقيقة علمية من جهتين الجهة الأولى : هي الحقيقة في ذاتها

والجهة الثانية هي الحقيقة في وجوه العلم بها ، والفوائد المترتبة عليها .

ويضرب ابن تيمية أمثالا لذلك فيقول : إذا قيل (ذلك الكتاب) هو القرآن ، فهذا تقريب ، لأن المشار إليه ، وإن كان واحداً فالإشارة بجهة الحضور ، غير الإشارة بجهة البعد .

ولفظ الكتاب ، يتضمن من كونه مكتوبا مضمونا ، ما لا يتضمنه القرآن من كونه مقروءا .

فهذه الفروق موجودة في القرآن .

٧٠ : الأنعام

وكذلك إذا قال أحدهم (ان تبسل) أي تحبس ، وقال الآخر ، ترتبن ، ونحو ذلك لم يكن من اختلاف القضاء ، وإن كان المحبوس قد يكون مرتبنا أو لا يكون إذ هذا تقريب للمعنى كما تقدم^(٨٦)

ونقول — معا — إن هذا كله ، هو الأساس الجامع لربط الإسلام بين العلم والنفع ، وبينهما معا وبين كل قول صادق ، وعمل صالح ، وأمر بالمعروف ونهي عن

المنكر ، فلا مكان في الاسلام ، للعلم الذي يقف عند حدود الترف الفكري وحده .

ثم يربط ابن تيمية رحمه الله ، بين نفيه للاختلاف من تفسير الصحابة والتابعين وبين النقل وطرق الاستدلال .

وهنا يتحدث عن النقل والاستدلال فيقول :

العلم أما نقل مصدق ، أو استدلال محقق

والمنقول إما عن المعصوم أو غيره وهكذا يربط ابن تيمية ، بين التفسير وبين السنة ، ويدعونا إلى النظر في إسنادها وشرطه .

ثم يحثنا على الاستدلال ، بنصوص الوحي ، لا بالرأي البعيد عنها .

ويقول ابن تيمية ، فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي ، فحرام ويروي أحاديث في ذلك ، أهمها حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار^(٨٧)

وهكذا ننتهي — معا إلى أن الإعجاز الإلهي في الخلق والوحي ، قائم في أهم وجوهه على هذا الترابط والتكامل ، بين وجوه الحقائق جميعا ، في كل أجزاء الوحي من جهة ، وكل أجزاء الخلق من جهة ، فكل شيء من ذلك فيه تصديق للآخر وتفسير له ، وتوثيق متجدد ، لحقائقه العلمية والعملية ، بكل مكان وزمان .



يهلك أمتي بسنة فأعطانيها ، وسألته أن لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فأعطانيها ، وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها .

الترمذي ج ٤ ص ٤٧١ الحديث ٢١٧٥ .

وفي أحاديث أخرى ، بيان معنى أن لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم ، ان عدوهم لا يستطيع القضاء عليهم أجمعين ، وان ذهب ببعض ما في أيديهم ، جزاء على بعض ذنوبهم .

(١٦) راجع لسان العرب لابن منظور ج ٢ ص ٦٩١ مادة (عجز) حيث عجب العلامة بن منظور من قوله تعالى (وما أنم بمعجزين في الأرض ولا في السماء) وأورد في ذلك أقوالا كثيرة ، لعدد من المفسرين القدامى لم يعرفوا الطائرات أو الصواريخ فقال الفراء : ما هم بمعجزين في الأرض ولا أهل السماء بمعجزين فيها ، وقول الفراء بعيد كما نرى لأن الله قال (وما أنم بمعجزين في الأرض ولا في السماء) فتفسير ذلك لا يظهر بتمامه إلا بعد وصولنا إلى عصر الفضاء ، وما يأتي بعده .

انظر في الفصل الثاني كلام الدكتور محمد أحمد الضمراوي ، وأقرأ — كذلك — كتاب سننهم آياتنا للدكتور أحمد شوقي إبراهيم .

(١٧) انظر كنز العمال ج ١ ص ١٠٨ الحديث ٤٩٩ وقد جاء في هامشه انه حديث رواه أحمد في مسنده ومسلم في صحيحه .

(٢) راجع معترك الأقران ٢٧/١ ، ٣٢ ، ٥٤

(١٨) جاء في مسند أحمد ج ٤ أن النبي ﷺ تفل في كفه ثم أشار بإصبعه إلى ذلك وذكر الحديث ، ومعنى قول الله تعالى (من مثل هذا أي من مثل ما تفل النبي ﷺ)

(١) الموافقات للشاطبي ١٧/٤

(٣) (٤) الفتح الرباني لمسند الإمام أحمد ترتيب العلامة أحمد عبد الرحمن البنا ١٩٠/١٨ ولزيادة التوسع في الموضوع انظر البرهان للزركشي ٢٦٠/١ (٥) راجع موسوعة الثقافة العلمية مادة الروابط وأنواعها ص ١٦٧ وما بعدها

(٦) صحيح الجامع الصغير ٣٥٧٥

(٧) الدر المنثور للسيوطي ١٠٥/٤

(٨) انظر الاعتصام للشاطبي ٢٣٧/١

(٩) وللتوسع في دحض المفتريات الحديثة ضد القرآن والسنة راجع السنة المفترى عليها للأستاذ سالم البهنساوي .

(١٠) للتوسع في بيان أنواع الترابط والترتيب في القرآن ثم في السنة ، وتأثير ذلك في الوجود الإنساني راجع كتاب مقدمة في تفسير الرسول للقرآن الكريم لمحمد العفيفي .

(١١) الله يتجلى في عصر العلم ص ٣٢

(١٢) المصدر السابق ص ١٠٩

(١٣) انظر معجم غريب القرآن ، مستخرجا من صحيح البخاري — باب القاف ص ١٧٢ تأليف : محمد فؤاد عبد الباقي

(١٤) وانظر كذلك كتاب العمل والعمال ، بين الإسلام والنظم الوضعية المعاصرة ، للدكتور سعد المرصفي ص ٧٧ وما بعدها .

(١٥) عن عبد الله بن حبيب بن الأرت عن أبيه قال : صلى رسول الله ﷺ صلاة فأطأها قالوا : يا رسول الله صليت صلاة لم تكن تصلحها ؟ قال أجل إنها صلاة رغبة ورهبة ، إني سألت الله فيها ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة ، سألته أن لا

(١٩) انظر كذلك في صحيح الجامع الصغير للسيوطي ج ٦ ص ٣٥٥ برقم ٨٠٠٠ وهو صحيح الاسناد كما يقول محققه ناصر الدين الألباني .

(٢٠) سند أحمد ج ٦ ص ١٦٩ .

(٢١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ج ٤ ص ١٣٦ وهذا جزء من حديث جاء في صحيح البخاري ٢٩ وصحيح مسلم ٧٨ (مسافرين)

(٢٢) مسند أحمد ج ٤ ص ٤٣٤ وصحيح مسلم نذر ٨ .

(٢٣) كنز العمال ج ٤ ص ١١٥ الحديث ٥٤٠ وجاء فيه انه رواه أحمد ومسلم وابن ماجه .

(٢٤) صحيح الجامع الصغير للسيوطي ج ١ (ص ٤٠٨ الحديث ١٣٠٠)

(٢٥) صحيح الجامع الصغير ج ١ ص ٤٠٦ الحديث ١٢٩٦ .

(٢٦) صحيح الجامع الصغير ج ١ ص ٤٠٧ الحديث ١٢٩٧ وجاء فيه انه رواه مسلم في صحيحه ٨١/٨ - ٨٢ .

(٢٧) المصدر السابق ج ١ ص ٤٠٦ وهو صحيح الاسناد وجاء فيه انه رواه البخاري ومسلم وغيرهم .

(٢٨) صحيح مسلم ج ١ ص ١٨٦ (الحديث ٣٢٩) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .

(٢٩) وهناك حديث آخر يزيدهما لقول النبي ﷺ (حتى تعجز أعمال العباد) فقد قال النبي ﷺ (لا يدخل أحدا منكم عمله الجنة ولا يخرج من النار ، ولا أنا إلا برحمة الله)

(٣٠) الخطابي هو أحمد بن محمد بن ابراهيم أبو سليمان ، شارح سنن أبي داود ومؤلف كتاب اعجاز القرآن تولى سنة ٣٨٨ هو ترجمته عند ابن خلكان ١ : ١٦٦ انظر ذيل الاتقان للسيوطي ج

٣ ص ٨٨ .

(٣١) سنن أبي داود ج ٢ ص ٢٣٣ برقم ١٥٧٥ وانظر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ج ١ ص ٤٦٥

(٣٢) الدر المنثور للسيوطي ج ٦

(٣٣) تفسير مجاهد تحقيق السورتي ج ٢ ص ٦٣٩

(٣٤) معجم مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص ١١٥

(٣٥) معجم مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص ١٠٨

(٣٦) لسان العرب لابن منظور ص ١٠٥٣

(٣٧) ارجع الى المدخل التفصيلي ، وانظر في السبع المثاني .

(٣٨) الخطابي (اعجاز القرآن ص ٢٦ ، ٢٧ ، ٧٠ وهذا القدر من كلامه منقول عن عالم معاصر هو الاستاذ المحقق أحمد عز الدين عبد الله خلف الله وذلك في كتابه (القرآن يتحدى) ص ١٧٠ - ١٧١

(٣٩) المصدر السابق ، وهذا يذكرنا بقوله بما جاء بكتاب (القرآن يتحدى) ص ١٧٨ - ١٧٩ - نقلا عن المخطوطة ٦٨ بالمكتبة الأزهرية .

(٤٠) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٣٨ - والباقلاني هو أبو بكر محمد بن الطيب المتوفي سنة ٤٠٣ هـ

(٤١) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٢٩١

(٤٢)

(٤٣) انظر كتاب (الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام) وقال الألباني هذا الحديث رواه أبو داود والترمذي والحاكم وصححه ، أحمد بسند صحيح .

(٤٤) صحيح الجامع الصغير للسيوطي ، تحقيق الألباني ، ج ٥ ص ٨٤ الحديث ٥٢٣٩

(٤٥) انظر ما سبق من كلام الباقلاني وهو في كتابه اعجاز القرآن ص ٢٩١

(٤٦) انظر هذه الخطبة النبوية ، بكتاب اعجاز القرآن للباقلاني ص ١٣٠ — ١٣١ وعزاها محققه الأستاذ السيد أحمد صقر الى العقد الفريد ٧٥/٤ ، والبيان والتبيين ٣١/٢ .

قلت : كتب الأدب ليست هي مصادر الأحاديث النبوية ، إنما مصادرها كتب السنن ، فانظر مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٥ ص ٦٢ — ٧٣ وقد جاء فيه هذه الخطبة وهي صحيحة الإسناد كما جاء بكتاب الفتح الرباني : للعلامة أحمد عبد الرحمن البنا ج ١٢ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ قال عن هذه الخطبة اسنادها صحيح وأوردها المهيمن ، ولم يقف عليها في غير مسند الإمام أحمد .

(٤٧) الخطيب الاسكافي هو أبو عبد الله محمد ابن عبد الله المعروف بالخطيب الاسكافي — كان اسكافا ثم نبغ في العلم وولي الخطابة بالري وتوفي سنة ٤٢٠ هـ .

(٤٨) درة التنزيل ص ٢٠ — ٢١

(٤٩) هذا القول ذكره المكبري ٥٣٨ هـ — ٦١٦ في كتابه املاء ما من به الرحمن ص ٢٢١ وعزاها الى سيبويه وكذلك صنع الاسكافي اذ جاء بهذا القول وعزاها الى صاحبه ص ٢١ درة التنزيل .

(٥٠) أسباب النزول للواحدي ص ١٤ ، أسباب النزول للسيوطي ص ١٩ ، أسباب النزول عن الصحابة والمفسرين للشيوخ عبد الفتاح القاضي ص ١٣

(٥١) تاج القراء الكرمان هو محمد بن حمزة بن نصر الكرمانى من علماء القرن الخامس الهجرى وليس هو الكرمانى شارح صحيح البخارى — انظر ص ١١ — ١٧ من كتاب (أسرار في القرآن) للكرمانى تحقيق الأستاذ عبد القادر أحمد عطا .

(٥٢) كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشترى

من الأحاديث على ألسنة الناس للعجلوني المتوفى في سنة ١١٦٢ هـ ج ١ ص ٢٦٣ برقم ٦٩٧ وقد جاء في هذا الحديث في الصحيحين فهو حديث متفق عليه .

(٥٣) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٧٣ (٥٤) سنن الترمذي كتاب التفسير ورقم الحديث ٣٣٦٦ وقال أبو عباس حديث حسن صحيح وانظر كذلك تفسير فتح البيان للعلامة حسن خان ج ١٠ ص ٤٩١ .

(٥٥) الجرجاني هو عبد القاهر بن عبد الرحمن الشيخ أبو بكر الجرجاني النحوي المتكلم على مذهب الأشعرى الفقيه على مذهب الشافعى تولى عام ٤٧١ هـ

انظر تعريفه في الصفحات ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ من بداية كتاب دلائل الاعجاز وكذلك في بقية الامانة للسيوطي ص ٣١٠ ، ٣١١ كما جاء في المرجع السابق .

(٥٦) انظر تقديم محمد عبد المنعم خفاجي لكتاب دلائل الإعجاز للجرجاني ص ٢٦ وما بعدها .

(٥٧) المصدر السابق والحقيقة ان هناك تعمية لمسألة النحو على حقائق النظم وهي كثيرة منها ما يتصل بعدد مواضع كل كلمة قرآنية وصلاتها المتجددة بسياقها من كل موضع وترتيب كل كلمة بين غيرها من كلمات القرآن .

وهذه أمور أهم من النحو وهو جزء بسيط منها . (٥٨) المصدر السابق ص ٨٩ .

(٥٩) انظر ص ١٠٥ من نهاية الإيجاز المطبوع بمطبعة الآداب والمؤيد بمصر سنة ١٣١٧ هـ

(٦٠) نهاية الإيجاز للفخر الرازي ص ١٦٧ — ١٦٨ والفخر الرازي هو المفسر المعروف محمد بن عمر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ .

(٦١) اقرأ كتاب الفيلسوف والعلم تأليف جون

جيمني ترجمة أمين الشريف ، لتقف على الصعوبات التي تواجه العلماء في تدوينهم لمصطلحات العلوم ، وكيف أنهم بحاجة إلى أن يفيدوا من الهدى القرآني في ذلك .

(٦٢) كلمة سقيه معناها قرية من جاره — انظر النهاية لابن الأثير الجزري ج ٢ ص ٣٧٧ .

(٦٣) انظر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ج ١ ص ٤٠٧ .

(٦٤) ابن حزم هو الإمام العلامة أبو محمد علي ابن أحمد أبو سعيد بن حزم بن غالب المتوفى سنة ٤٧٥ هـ

(٦٥) البرهان في علوم القرآن للزركشي ج ٢ ص ١٠٨

والزركشي هو بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر — أحد علماء مصر في القرن الثامن انظر مقدمة — البرهان ج ١ ص ٥

(٦٦) القرآن يتحدث ص ١٨٢

(٦٧) انظر المصدر السابق ١٧٣ لبيان كلام النظام عن المعرفة أي أن القرآن — الله تعالى قد صرف الناس عن معارضة القرآن ومذاهب كل ما في الإعجاز ونقول — معا — ان كلام النظام وهم واقتراء .

(٦٨) ابن الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٣ ص ١٧ — ١٩ وقد جاء هذا المصدر في المصدر السابق ص ١٨٤ .

(٦٩) ابن برج هو الإمام عبد السلام بن عبد الرحمن بن عبد السلام الأشبلي المعروف بابن برجان أحد أئمة اللغة والنحو في زمانه ذكره السيوطي في بنية الدعاة ٣٠٦ (وهذا التعريف من حاشية الصفحة ١٢٩ ج ٢ لكتاب البرهان لعلوم القرآن للزركشي تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ولي طبقات المفسرين للدواودي ج ١ ص ٣٠٠ قال تولى سنة ٥٣٦ هـ)

(٧٠) الزركشي هو الإمام محمد بن بهادر الزركشي أحد علماء مصر الاثبات في القرن الثامن وتولى بمصر سنة ٧٩٤ هـ وانظر حاشية ج ١ ص ٥ من كتاب البرهان ط عيسى البابي الحلبي .

(٧١) مسند أحمد ج ٤ ص ١١٥

(٧٢) فقه السنة للشيخ سيد سابق ج ٩ ص ١١٥ — ١١٦ دار البيان وقال عن هذا الحديث رواه أحمد وأبو داود .

(٧٣) انظر أحكام القرآن للشافعي ج ١ ص ٣٠٥ وقد احتج الشافعي بهذا الحديث على عدم الجمع بين الجلد والرجم للزاني المحصن فيكتفي عنده بالرجم فقط .

(٧٤) ما بين القوسين من كتاب أفعال الرسول ودلائلها على الأحكام الشرعية لمحمد سليمان الأشقر ج ٢ ص ١٢٣ — ١٢٤ وعزا المؤلف قصة ما عز الى نيل الأوطار ١٠٠/٧ وما جاء عن خالد وعمر الى نيل الأوطار ٢٨٠/١

(٧٥) انظر صحيح مسلم ١ : ٣١ كتاب الايمان

(٧٦) الموطأ صفة النبي (٤)

(٧٧) البخاري أدب ٣١ ، ٣٥ ، ٨٥ ومسلم لقطة ١٤ ، ١٥

(٧٨) مقدمة — في أصول التفسير (٩٣) لابن تيمية وهو العلامة تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ٦٦١ — ٧٢٨ هـ .

(٧٩) يقول الدكتور عدنان زرزور — محقق الكتاب — ص ٣٦ (راجع تفسير الطبري) ٨٠/١ وقارن بالقرطبي ٣/١ والله — رحمه الله — استشهد بالحديث من وجه آخر انظر مجموعة الرسائل الكبرى ٣١/٢ .

أما عبد الرحمن السلمي فهو عبد الله بن حبيب الكوفي المرقى من كبار التابعين — ثبت ولاية صحبه (انظر تقريب التقريب) لابن حجر . ٤٨٠/١

(٨٠) ويقول الدكتور عدنان زرزور محقق الكتاب انظر - حول الحديث : الطبري ١٧٣/١٧١/١ بتخريج الشيخ أحمد شاكر - رحمه الله .

(٨١) انظر الفصل الثالث .

(٨٢) المقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص ٣٨ - ٤٧ .

(٨٣) المصدر نفسه ص ٤٨ .

(٨٤) انظر تعليق الدكتور زرزور حيث قال في

حاشية ص ٤٨ من هذا الكتاب : ان ابن فنية

يقول ان فورة من القر وهو القهر والأسد يقهر السباع وعن بعضهم أنه النيل كذلك راجع الطبري ١٦٨/٢٩ .

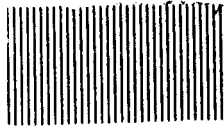
(٨٥) تلخيص لما أورده ابن تيمية في المصدر السابق ص ٥١ .

(٨٦) المصدر السابق ص ٥٣ .

(٨٧) جاء في كلام الدكتور زرزور عن تخريج

هذا الحديث انه رواه الترمذي وقال حديث حسن

صحيح من الترمذي ١٤٦/٨ وشرح أبي داود • ٢٤٩/٥



الإعجاز القرآني والتقدم العلمي

رؤية معاصرة

محمد العفيفي

إذاعة الكويت

(٢)

والمُنسوخ ، والمحكم والمتشابه ، العام والخاص ، وما كان عاما ثم خصصته السنة ، وما كان عاما في السنة وخصصه القرآن ، ومعرفة تأويله وتفسيره .

١ - أسباب النزول :

وأسباب النزول ، فيها الكثير من وجوه الإعجاز القرآني ، الذي تبينه السنة ، ولا مفر في ذلك من اجتماع كل آية مع الحديث النبوي ، الذي يبين لنا سبب نزولها بل إننا لو بحثنا في ترتيب أسباب النزول ، لوجدنا فيه نوعا مستعملا بذاته ، من أنواع الإعجاز في الترتيب .

ولا يزال مشتهرا بين الباحثين في الإعجاز ، إلى يومنا هذا ، أن كل آية

٩ - مع السيوطي في الاتقان :

ويحتوي كتاب الاتقان للسيوطي ، على ثمانين نوعا من علوم القرآن ، يتصدرها بيان المصادر الكثيرة التي اعتمد عليها السيوطي ، في تصنيف هذا الكتاب ، ومنها ما هو خاص بكتب التفسير ، والكتب الخاصة برجال الحديث وغيرهم . وجوامع الحديث والمسانيد ، وكتب القراءات ، وكتب اللغات ، وكتب الأحكام ، وكتب الإعجاز (٨٨)

فأما هذه الأنواع الثمانون ، فمنها ما هو خاص بأسباب النزول ، وما نزل مفرقا ، وما نزل جميعا ، وجمعه وترتيبه ، في عدة سور ، وآياته وكلماته وحروفه ، وقراءات النبي ﷺ ، ورسم المصحف . والناسخ

بتامها ، هي التي تعين لنا حكمة ورودها في ترتيبها الخاص بأسباب النزول ، ثم في ترتيبها كما نتلو سور القرآن في المصحف .
ولكننا سنرى ، أن ترتيب القرآن ، يظهر لنا ما ييسره الله من وجوه حكمته ، مهما ننظر في كل آية بتامها ، أو ننظر في أجزاء الآيات من حرف أو كلمة أو جملة صغيرة .

واختلاف ترتيب السور عند بعض الصحابة ، لا ينبغي أن يصرفنا عن الإعجاز في ترتيب المصحف ، الذي اتفق عليه المسلمون منذ عهد عثمان رضي الله عنه ، لأن هذا الترتيب هو الذي تم تحقيقه ، على ما كان من جمع القرآن على يدي النبي ﷺ ، بوحي من ربه ، وكما عرضه على جبريل مرتين ، في آخر شهر رمضان ، من حياته صلوات الله وسلامه عليه .

وهكذا نعلم ، أن جمع القرآن ، وترتيبه داخل في السنة العملية ، للنبي ﷺ ، وفي هذا بيان للتلازم الدائم ، بين الوحي القرآني ، وبين الوحي المبين له وهو السنة (٩٠) .

٢ — عدد السور والآيات والكلمات والحروف في القرآن كله

أما عدد سور القرآن ، وآياته وكلماته وحروفه ، فقد كثرت الأحاديث النبوية ، التي تبين لنا ترتيب السور ، مما يبين الاجماع ، على أن عدد السور مائة وأربع عشرة سورة وكذلك الشأن في ترتيب كل اية بكل

سورة ، فهو ما ورد عن النبي ﷺ ، قولاً وعملاً ، وهو متضمن عدد الآيات والكلمات والحروف ، بحكم ثباتها وإمكان عدّها ، لمن اجتهد في ذلك من العلماء ، بكل الأمكنة والأزمنة .

ويقول السيوطي في الإتقان :

أخرج ابن الضريس ، بتشديد الضاد وضمها ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جميع أي القرآن ستة آلاف آية ، وستائة آية ، وجميع حروف القرآن ثلاثمائة ألف حرف ، وثلاثة وعشرون ألف حرف ، وستائة حرف ، وسبعون حرفاً .

وعد قوم كلمات القرآن ، سبعة وسبعين ألف كلمة ، وتسعمائة وأربعاً وثلاثين كلمة . وأورد السيوطي أقوالاً مختلفة ، في إجابة من يتساءل عن فائدة هذا العد ، هل له من فائدة .

فمما جاء في ذلك ، عن بعض العلماء القدامى ، أن العد لا فائدة له ، لأن القرآن لا يزيد ولا ينقص .

والحقيقة أن عدّ كلمات القرآن ، فيه فوائد كثيرة ، منها الوقوف على عدد وجوه العلم والإعجاز ، التي يتفرد كل حرف أو كلمة أو آية أو سورة في القرآن كله ، بوجه معين منها (٩١) .

وهذا يجعلنا نذكر قول أبي بكر بن العربي .

ان علوم القرآن خمسون علماً ، وأربعمائة وسبعة آلاف علم ، وسبعون ألف علم ،

يردها قياس عربية ولا فشو لغة ، لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها (٩٢)
ومما يبين الترابط بين القرآن والسنة ان القراءات ، كما روت عن النبي ﷺ ، تظل مصاحبة لنا مع كل حرف ننطقه ، وكلمة نصلها بما قبلها وما بعدها .

ولهذا دليل جليل في السنة الصحيحة .
عن سعود بن يزيد الكندي قال : كان ابن مسعود يقرئ رجلا ، فقرأ الرجل « إنما الصدقات للفقراء والمساكين » مرسله فقال ابن مسعود ، ما هكذا أقرأنيها رسول الله ﷺ

على عدد كلمات القرآن مضروبة في أربعة حيث قال بعض السلف إن لكل كلمة قرآنية ظاهرا و باطنا وحدا ومطلعا .
وتفسير هذا اجتهدا والله أعلم .

إن الظاهر هو مبني كل كلمة ، أما الباطن فهو معناها في ذاتها .
والحد هو استقلالها ، بمبناها ومعناها ، بين ما تتوسطه من الكلام .

والمطلع هو ارتباطها واندماجها في سياقها من كل موضع ، بحيث ترتبط بمقصد جديد ، بكل موضع جديد ، مهما تكرر مواضعها .

٣ — من أحكام القراءات :

فقال : كيف أقرأكمها يا أبا عبد الرحمن ؟
فقال : أقرأنيها « إنما الصدقات للفقراء والمساكين » فمد (٩٣)
والمد في كلمة الفقراء يسمى المد المتصل ، لوجود الهمزة بعد حرف المد في كلمة واحدة

أما القراءات فهي سنة متبعة ، كما أورد السيوطي في الإتقان ، ما أخرجه سعيد بن منصور في سننه عن زيد بن ثابت قال :
القراءة سنة متبعة .

ثم يأتي السيوطي ، بقول للبيهقي يبين أن اتباع من قبلنا في الحروف ، سنة متبعة ، لا يجوز مخالفة المصحف الذي هو إمام ، ولا مخالفة القراءات التي هي مشهورة ، وإن كان غير ذلك سائغا في اللغة أو أظهر منا .

وكل أحكام القراءات ، لها ما يماثلها في حقائق الكون ، ولذلك تفصيل ، لا يفهمه إلا العالمون بهذه الأحكام .

وكذلك يأتي السيوطي في هذا السياق بقول آخر ، لأحد العلماء القدامى هو الداني حيث يقول :

ولكن الذين يستمعون القرآن بالأحكام الصحيحة ، التي حفظتها لنا السنة — فإنهم يتصلون بالنبي ﷺ اتصالا وثيقا ، حتى كأنهم يعيشون في عصر النبوة ، والقرآن ينزل به جبريل عليه السلام .

وأئمة القرآن لا تعمل في شيء من حروف القرآن ، على الألف في اللغة ، والأفيس في العربية ، بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل ، وإذا ثبتت الرواية ، لم

« أشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة » (إلى آخر الآية)

١٣ : المجادلة

الثاني : ما نسخ مما كان مشروعا عند من قبلنا ، وتابناهم عليه ، ثم انتقلنا إلى حكم جديد .

وذلك مثل تحويل القبلة ، من بيت المقدس ، إلى الكعبة في البيت الحرام .
الثالث : ما أمر به لسبب ، ثم يزول السبب ، مثل الأمر بالصبر على الإيذاء في حين الضعف ، ثم نسخ ذلك بإيجاب القتال للمشركين عند تمكن المسلمين وإعدادهم لقوتهم . (٩٤)

وهذا خاص بمن كان حربا على الإسلام ، معتديا على أمة الإسلام
أما من حيث النسخ في ذاته فقد جاء في الإتيان أنه على ثلاثة وجوه :
الوجه الأول : ما نسخت تلاوته وحكمه معا .

قالت عائشة رضي الله عنها : كان فيما أنزل (عشر رضعات معلومات فنسخن بخمس معلومات) . (٩٥)

فمن حكمة المنسوخ حكما وتلاوة ، التدرج الذي انتهى بالتحريم ، كما انتهى إليه الأمر بقوله تعالى « وأخواتكم من الرضاعة »

٢٣ : النساء

وعن عائشة رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ قال :

وعلم القراءات ، هو الذي يبين لنا أن القرآن كوني ، وأن الكون قرآني ، لكثرة ما جعل الله في هذا العلم ، من التراكيب الصوتية المتأثلة ، مع منهج الله في مزج أسباب الجمال الكوني ، بعضها ببعض .

٤ - الناسخ والمنسوخ :

الناسخ والمنسوخ ، يستخلص منهما معنى حركة الحياة ، لأن معناه في اللغة مناسب لقولهم ، نسخت الشمس الظل ، أي حلت مكانه ، فهو إيضاح لتجدد نعم الله ، وبيان البداية والنهاية في حياة الإنسان ، ودخوله في الأمور المختلفة وخروجه منها .

ولو لم يكن في القرآن عام وخاص ، وناسخ ومنسوخ ، لما تبين لنا ، كيف تتناسب آياته مع كل أحوال النفس الإنسانية .

السنة تبين لنا أنواع النسخ :

لذلك جاء في كتاب الإتيان أن النسخ أنواع :
الأول : نسخ المأمور به قبل امتثاله ، كآية النجوى

« يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة » .

١٢ : المجادلة

وفي هذا بيان أن الله قادر أن يكلفهم مشقة ، في تلقيهم للعلم من النبي ﷺ
ثم نسخ ذلك ، قبل العمل به ، فقال تعالى في الآية التالية ، لهذه الآية السابقة :

لا تحرم المصّة ولا المصتان (٩٦)

وفي رواية لمالك في الموطأ

وإن كان مصّة واحدة فهو يحرم (٩٧)

وفي رواية أخرى له كذلك .

الرضاعة قليلها وكثيرها تحرم (٩٨)

فهذه المصادر كلها في القرآن والسنة ،

وليست متعارضة ولكن النسخ بين لنا

بالرجوع إلى أزمنتها أن اللاحق هو الناسخ ،

وأن السابق هو المنسوخ ، وعلى ما استقر

عليه العمل أيام النبي ﷺ ، يستمر العمل

به إلى يوم القيامة .

الوجه الثاني : ما نسخ حكمه وبقيت

تلاوته .

ومنه آية الوصية « كتب عليكم إذا

حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية

لوالدين والأقربين »

١٨٠ : البقرة

فقد نسخ حكم الوصية هنا بآية

الموارث ، وإن بقيت متلوة في القرآن (٩٩)

وقيل نسخ آيته حديث النبي ﷺ :

« لا وصية لوارث » (١٠٠)

ونقول — معا — ان من الحكمة ، في

بقاء آية الوصية متلوة في القرآن أن فيها

وظيفة عملية .

فقد استخلصت من آية الوصية أحكام

أخرى خاصة بالأقربين ، وهو ما يعرف

بالوصية الواجبة للأحفاد ، إذا مات أبوهم ،

ثم مات جدّهم بعد ، فوجب أن يوصى لهم

بما كان يخصّ أباهم لو أنه لم يمت قبل

الجد .

وقد استفاد الفقهاء المعاصرون — من وجود

آية الوصية متلوة في المصحف ، وجوب

تشريع الوصية الواجبة هؤلاء السابق

ذكرهم ، بينما استفادوا من مقدارها بالحديث

الذي قال فيه النبي ﷺ ، لسعد بن أبي

وقاص أوص بالثلث والثلث كثير (١٠١)

والوجه الثالث : هو ما نسخت تلاوته وبقي

حكمه

وواضح أن الذي تنسخ تلاوته من القرآن

ويبقى حكمه ، فلا بد معه من سنة تبين

أصول العمل به ، ويستقر بها ما فيه من

وجوه العلم ، بل ان السيوطي قد أكد هذا

في سياق آخر فقال :

قال الشافعي : حيث وقع نسخ القرآن

بالسنة فمعها قرآن عاضد لها ، وحيث وقع

نسخ السنة بالقرآن فمعها سنة عاضدة له ،

ليتبين توافق القرآن والسنة (١٠٢)

وكلام الشافعي — هنا — يتفق مع أنواع

كثيرة من النسخ ، ولكنه يبين لنا أن —

الحكم لا بد من أن يكون موجودا بالقرآن أو

السنة أو هما معا ، إذا كان فيه تفصيل ، أو

اقتران بشيء من التجديد في أصوله وفروعه .

ثم نلاحظ أن هذا النوع من أنواع

النسخ ، يبين لنا حركة الوحي الإلهي ، بين

القرآن والسنة ، وان الله تعالى هو الذي يبين

لنا ما هو قرآن وما هو حديث قدسي ، وما

هو حديث نبوي ، ثم جعل مصادر دينه

وموارده ، في هذا كله .

ومنه ما يتصل بالسنة ، من أفعال النبي

وتقريراته .

وما يبين ذلك ، ما أثبتته السيوطي في
الاتقان على هذا النحو
عن أبي واقد الليثي قال : كان رسول الله
ﷺ ، إذا أوحى إليه ، أتيناها فعلمنا مما
أوحى إليه قال فجئت يوما فقال : إن الله
يقول إنا أنزلنا المال لإقامة الصلاة وإيتاء
الزكاة ، ولو أن لابن آدم واديا لأحب أن
يكون إليه الثاني ، ولو كان له الثاني ، لأحب
أن يكون إليهما الثالث .

ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ،
ويتوب الله على من تاب^(١٠٣)

فلما كان هذا القدر من الوحي ، قد
ثبت أنه حديث قدسي ، فهذا مما يبين أن
هذا الضرب الثالث ، وهو الخاص بالذي
نسخت تلاوته من القرآن ، وبقي حكمه ،
قد يكون نزل به الوحي ضمن الأحاديث
القدسية ، أو الأحاديث النبوية ابتداء ، أو
يكون قد نزل ضمن آيات القرآن ، ثم نسخ
واستقر حكمه في السنة ضمن نوع من
أنواعها .

وما يؤكد ذلك أن السيوطي ، أورد في
هذا السياق حديثاً آخر قال :

أخرج الحاكم في المستدرك

عن أبي بن كعب قال : قال لي رسول
الله ﷺ : إن الله أمرني أن أقرأ عليك
القرآن فقرأ «لم يكن الذين كفروا من أهل
الكتاب والمشركين» وكان بها لو أن ابن
آدم سأل واديا من مال فأعطيه ، سأل ثانيا ،
وإن سأل ثانيا فأعطيه ، سأل ثالثا ، ولا يملأ

جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على
من تاب ، وإن ذات الدين عند الله ،
الحنيئة غير اليهودية ولا النصرانية ، ومن
يعمل خيرا فلن يكفره^(١٠٤)

وهكذا يمكن أن نستنتج أن الله تعالى
أوحى إلى عبده ورسوله ، محمد ﷺ ،
وحيا كثيرا منه ما هو قرآن تعهد الله بجمعه
وحفظه ، لأنه كلامه ، وله أحكام خاصة به
وحده ، ودرجات من الإعجاز ليست لغيره
ثم من هذا الوحي ما هو حديث قدسي أو
حديث نبوي

فكان مما هو متعلق بالنسخ ، بيان الله
سبحانه للنبي ﷺ كل نوع من أنواع
الوحي

وما يزيد هذه الحقيقة بيانا وتأكيذا ،
أن البخاري ومسلما أوردوا بعض الأحاديث
النبوية الصحيحة متضمنة بيان نزولها
بالوحي ، كما كان القرآن ينزل بالوحي ، بما
له من علامات عرفها الصحابة في النبي
ﷺ ، وشاهدوها ، وعانوها .

ومن ذلك حديث لعلي رضي الله عنه
قال : لعمر رضي الله عنه ، أرفى النبي ﷺ
حين يوحى إليه ، قال : فبينما النبي ﷺ
بالجرعانة ، ومعه نفر من أصحابه وجاء رجل
فقال يارسول الله كيف بمن أحرم بعمره وهو
متضمخ بطيب ؟

فسكت النبي ﷺ ساعة فجاءه الوحي
فأشار عمر رضي الله عنه إلى علي وعلى رسول
الله ﷺ ثوب ، قد أظلم به ، فأدخل رأسه

فإذا رسول الله ﷺ حمر الوجه ، وهو يغط
ثم سرى عنه فقال :

اغسل الطيب الذي بك ثلاث مرات ،
وانزع عنك الجبة ، واصنع في عمرتك كما
تصنع في حجتك (١٠٥)

فهذا الحديث ، يؤكد أن القرآن ، قد
نزلت نصوصه كلها بالوحي الإلهي ، للنبي
ﷺ ، ثم جمع الله القرآن ففرغناه ، وجعل
للسنة طريقاً آخر فبعضها عمله النبي
عملاً ، وبعضها أقر عليه أصحابه إقراراً
وبعضها قاله قولاً

ثم جعل الله تدوين السنة ، طريقة الرواية
عن النبي بينا جعل القرآن ، يحفظ ويدون
بإشراف من النبي ﷺ ، ليكون في ذلك
تدريب للأمة على الغيب والشهادة معا ، في
تلقينهم للعلم وحفظهم له ، وعملهم به ،
وفي هذا يتوفر للمسلمين كل دواعي القوة
من التلقي المباشر وغير المباشر ، مع أصول
الاسناد ، وهي شرف خص الله به
المسلمين ، من بين الناس جميعا .

وهذا مما يبين لنا أن النسخ بمعناه الذي
يشمل الكتابة ، أو نقل المكتوب من مكان
إلى مكان أو الحركة المتفاعلة بين شيء
وغيره ، إنما هو بهذه المعاني كلها ، يكشف
لنا عن سر عظيم ، من أسرار الإعجاز في
الوحي كله من قرآن وسنة

وأن العلوم البشرية كلها ، لن تتقدم
التقدم المتفاعل مع كل منافعهم المتجددة ،
إلا بالربط الدائم ، بين القرآن ، والسنن

النبوية والسنن الكونية .

٥ - المحكم والمتشابه :

والمحكم والمتشابه ، جاء عنه في كتاب
الإتقان ، أن للعلماء فيه ثلاثة أقوال .
القول الأول : أن القرآن كله محكم لقوله
تعالى :

« كتاب أحكمت آياته »

١ : هود

القول الثاني : أن القرآن كله متشابه
لقوله تعالى :

« كتابا متشابها مثالي »

٢٣ : الزمر

القول الثالث : انقسامه إلى محكم
ومتشابه لقوله تعالى :

« منه آيات محكمات هن أم الكتاب
وأخر متشابهات »

٧ : آل عمران

وقد رجح السيوطي القول الثالث (١٠٦)
ولكننا نلاحظ أن ترجيح القول الثالث ،
يحمل معه في الحقيقة ، وجوب الربط ، بين
الأقوال الثلاثة ، في حقيقة واحدة جامعة .
وجوب النظرة المتكاملة إلى الإحكام
والتشابه

وحتى ننظر نظرة متكاملة ، إلى ما نظر
إليه السيوطي نفسه نظرات متفرقة ، فإننا
نجد القول الأول ، ينبغي أن ننظر إليه ونحن
نقرأ هذه الآية بتأملها :

« ألر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت

من لدن حكيم خبير »

١ : هود

٢ — وهكذا كنا بحاجة إلى قوله تعالى :
« كتابا متشابها مثاني »

٢٣ : الزمر

ليستوعب وجهها آخر ، من وجوه الحقيقة المتصلة بتدبرنا لآيات القرآن ، ونظرنا في التراسل بين أجزائها ، لا من حيث النصوص القرآنية في ذاتها فقط ، وإنما من حيث ارتباط عقولنا وقلوبنا بكل صلة جديدة بين أي قدر متعدد المواضع من القرآن ، وبين كل سياق نجده به .

وهكذا نصل إلى قوله تعالى :
« هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » إلى آخر هذه الآية حيث قوله تعالى :

« وما يذكر إلا أولوا الأبواب »

٧ : آل عمران

وهنا نعلم أن كل ما سبق في الترتيب ، من آيات القرآن وسوره ، فهو محكم أي تكون المعلومات فيه مجملة وكلية ، وجامعة لما يأتي مفصلا فيما يليها ، من الآيات والسور .

فالفاتحة — محكمة لجمعها كل أصول العلم في القرآن كله ، والقرآن كله تفصيل للفاتحة .

وقد نجد آية وقد سبقت بموضع ، ثم تفرعت بأجزائها ، ارتباطات بمواضع أخرى ، من آيات تالية لها في الترتيب .
فهكذا يكون السابق ترتيبا ، محكما ،

ووجود (آله) ضمن هذه الآية وحروفها ، يضع معرفتنا الإنسانية في حدودها الحقيقية التي وضعها الله فيها .
وهذه الحدود ، يتبين لنا معها ، أن الإنسان ينبغي عليه أن يتعلم مما كشف الله له معانيه من وجوه العلم ، وأن يؤمن بما غاب عنه علمه من ذلك ، ويرده إلى الله تعالى .

ولا شك في أن (آله) تدخل في هذا النوع الأخير ، بحكم كونها حروفا لا نستطيع ربطها بدلالة نستطيع في حدودنا البشرية — أن نعلمها ، ولا بد لها من دلالة يعلمها الله تعالى ، ولو شاء أن يبينها لنا لفعل .

أما باقي الآية ، فمعناه محكم ، أي مترابط في مشهد واضح الدلالة ، وإن كنا لا نستطيع أن نحيط بكل ما فيه من العلم .
فإذا نحن نظرنا ، إلى كل آية قرآنية نظرة جامعة ، تترابط معها معانيها في سياق واحد ، فإن هذا الصنيع يجعلنا في تطبيق عملي لقوله تعالى : « كتاب أحكمت آياته » .

أما قوله « ثم فصلت » فهو يدلنا على علوم كثيرة ، منها تعدد الصلوات ، بين كل قدر من أجزاء الآيات القرآنية من حرف أو كلمة أو جملة صغيرة وبين مواضع أي قدر من ذلك ، يتجدد ارتباطه بها في القرآن ، مع ترتيبه فيها ترتيبا معجزا ، ومفسرا لحقائق الوجود كله .

أي جملا ، بالنسبة لفروعه ، التي تأتي بعده .

لذلك قال الله تعالى « منه آيات محكمات هن أم الكتاب » أي هن السابقات ترتيبا في سور المصحف .

ذلك أن كلمة أم تعني السبق في الترتيب أيضا (١٠٧) .

ولذلك كانت الفاتحة أم الكتاب .

أما قوله تعالى : « وأخر متشابهات » فهو لا يفرق بين آية سابقة ، وأخرى لاحقة ، وإنما هو ينص على كل حال ، من أحوال نظرنا إلى الآيات أو أجزائها ، بالنسبة لما سبقها من الآيات .

فهكذا لا يكون هناك أي تناقض ، بين قوله تعالى : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت » وقوله تعالى : « منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » .

فقوله تعالى : « كتاب أحكمت آياته » موافق لقوله تعالى : « منه آيات محكمات هن أم الكتاب » وقوله : « ثم فصلت »

موافق لقوله : « وأخر متشابهات » فالإحكام والتفصيل والتشابه أمور متداخلة في الآيات جميعا ، وكل ما كان سابقا في ترتيبه بالنسبة لما يأتي بعده ، فهو محكم بالنسبة له ، ثم يأتي تفصيله فيما يتبعه من الآيات وأجزائها ، التي تكون بآيات تالية لها .

ومن الفروق بين التفصيل والتشابه ، أن التفصيل يراد به التركيب القرآني ، أما التشابه ، فهو أمر يكون في عقولنا ونفوسنا ونحن نتدبر آيات القرآن وسوره ، آية بعد آية ، وسورة بعد سورة .

ولهذا قال الله تعالى في نهاية هذه الآية : « وما يذكر إلا أولوا الألباب » .

فالتذكر يكون للسابق واللاحق ، من حيث ترتيب الآيات . وهكذا نستطيع تمييز ما هو محكم ، بالنسبة لما يأتي بعده في الترتيب ، فيتشابه به معه من جهة ، ويحتوي على تفصيله من جهة أخرى (١٠٨)

٦ - العموم والخصوص :

والعموم والخصوص ، حقيقتان ترتبطان ، بالإحكام والتفصيل والتشابه ، ولكنهما تزيدان عليهما شيئا جديدا ، هو بيان التفاعل الدائم ، بين القرآن والسنة ، مع تحديد كيفية العمل بالآيات والأحاديث .

لذلك قال السيوطي رحمه الله عن العام . العام لفظ يستغرق الصالح له من غير حصر .

فقوله : من غير حصر ، فيه بيان التلقي لحقائق الوحي ، بالنسبة لجهودنا البشرية ثم قال عن الخاص

انه هو الذي تخصص عمومه ، آية في موضع قرآني آخر ، بالنسبة للآية المراد بها العموم وربما أتى التخصيص في حديث أو إجماع أو قياس .

وفي الحقيقة إن الإجماع أو القياس ، إنما يعتمدان أساسا على نصوص من القرآن والسنة ، كما بين هذه الحقيقة ، فقيه معاصر هو الاستاذ سالم البهنساوي (١٠٩)

وهكذا نلاحظ أن العام يحتوي على الخاص إجمالا ، بينما الخاص وثيق الصلة بالعام على سبيل التفصيل ، الذي نحتاج الى النظر في نصوص كثيرة ، حتى نجمع أصوله وفروعه .

وهذا سبب آخر لقول السيوطي (من غير حصر)

أي علينا أن نظل في حركة دائبة ، لربط وجوه العلم بعضها ببعض ، وأن نرد العلم بعد بذل غاية الجهد ، إلى الله تعالى . من الآيات المراد بها التعميم ، وخصصها آيات في مواضع أخرى ، قوله تعالى : « وآتيم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا »

٢٠ : النساء

فإنه قد خص بقوله تعالى : « فلا جناح عليهما فيما اقتدت به »

٢٢٩ : البقرة

٢ — ومن الآيات التي جاء حكمها عاما لتخصصه السنة ، قوله تعالى : « وأحل الله البيع »

خص منه البيوع الفاسدة ، وهي كثيرة بينتها السنة ، ومن ذلك البيع على البيع ، حيث نهى عنه النبي ﷺ بقوله :

لا يبيع بعضكم على بيع أخيه (١١٠)

وكذلك :

نهى عن بيع الذهب بالورق دينا (١١١) .
وصح أن النبي ﷺ

نهى عن بيع النخل حتى يزهر وعن السنبل حتى يبيض ويأمن العاهة (١١٢)

وأية تحريم الميتة ، خص منها الجراد ، وميتة البحر ، وشاء الله أن تبينه السنة .
وقوله تعالى :

« والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما »

٢٨ : المائدة

خص منه من سرق دون ربع دينار وجاء التخصيص في السنة (١١٣)

٣ — ومن أمثلة ما خص بالإجماع ، آية الموارث ، خص منها الرقيق فلا يرث بالإجماع (١١٤)

٤ — ومن أمثلة ما خص بالقياس آية الزنا « فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » خص منها العبد بالقياس على الأمة ، كما في قوله تعالى : « فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » (١١٥)

ثم أورد السيوطي بيانا لأحكام قرآنية خاصة ، جاءت مخصصة لعموم السنة وذلك مثل قوله تعالى « حتى يعطوا الجزية »

٣٩ : التوبة

فقد خصص عموم قول النبي ﷺ أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله (١١٦)

وينتهي كلام السيوطي هنا لنقول — معا — إنه من الواضح أن الآية استقلت ببيان أحكام أهل الكتاب ، بينما الحديث استقل

بيان حكم مشركي مكة ، بالنسبة لموقف الإسلام منهم في هذا الشأن .

ومع ذلك فإن القرآن والسنة ، متفاعلان في هذا الحكم تعميما وتخصيصا ، لأن قضية الحرب والسلم بين المسلمين وغيرهم ، قضية جاءت في القرآن والسنة ، بهذا التنسيق المعجز .

رسم المصحف وبعض دلالاته على العموم والخصوص :

بل إن رسم المصحف ، وثيق الصلة بحقائق التعميم والتخصيص ذلك أننا نجد هذه الناحية ، من نواحي الإعجاز في كلام الله ، حاملة معها عوامل متجددة ، لبيان وجوه من العلم ، تؤكد هذه الحقيقة السابقة .

فالجمع في كلمة (سموات) يتفق مع التعميم والافراد في كلمة السماء ، يتفق مع التخصيص

وننظر فنجد رسم الكلمة — الأولى موافقا للتعميم ، حيث يقول الله تعالى : « الذي خلق سبع سموات طباقا »

٣ : المُلْك والموافقة — للتعميم هنا — تظهر في حذف ألف المد ، التي نجدها بعد الميم في الرسم العادي .

بينما ننظر في قوله تعالى : « والسماء ذات البروج »

١ : البروج

وهنا نجد ألف المد قد جاءت بموضعها العادي ، بعد الميم ، فذلك من علامات التخصيص ، الذي يناسب تفرد السماء الواحدة ، واستقلالها بذاتها ، من بين (سبع سموات) كما رأينا في سورة المُلْك . وكذلك الشأن في قوله تعالى : « وقيموا الصلوة وآتوا الزكوة » (١١٧)

٥ : البينة

فرسم كلمة (الصلوة) وكلمة (الزكوة) يجمع بين بعض حقائق الجمع والافراد ، وإن كان المقصود هو الافراد ، حتى يجتمع التعميم الذي يعني جملة ما يؤديه المصلون والمزكون ، مع التخصيص الذي يعني أن لكل منهم صلاته وزكاته ، في حدود التكليف الواقع عليه هو ذاته .

بينما لو نظرنا إلى رسم ، الذي يوحي بالتخصيص ، في كلمة من الكلمات الدالة على الصلاة ، فإننا نجد هذا في قوله تعالى : « الذين هم عن صلاتهم ساهون »

٥ : الماعون

والتخصيص — هنا — من حيث الرسم ، واضح في وجود ألف المد ، بعد اللام ، وفي حذف الواو ، التي دلت على الجمع في كلمة (الصلوة) كما جاءت بسورة البينة .

ذلك أن المد ، يرمز للفصل ، وهو مناسب للتخصيص .

أما التخصيص من الناحية الموضوعية ، فقد جاء في الآية الخامسة ، من سورة

الماعون ، متعلقا بمن يسهون عن صلاتهم .
والمعنى العام في الصلاة ، هو المحافظة
عليها وأداؤها بغير تهاون أو نسيان .

وهكذا نلاحظ أن العموم والخصوص ،
متجدد الدلائل بما يناسب معنى كل كلمة
ومبناها ورسمها ، وما قدر الله لها من عدد
المواضع والارتباطات المتجددة في القرآن .

أما السنة فهي مكتوبة بإملائنا البشري .
فالإعجاز في رسم كلام الله ، وهو
القرآن ، درجة رفيعة خصه الله بها .

والسنة في رسمها بإملائنا العادي ، قريبة
لمداركتنا المحدودة ، ولكنها — مع ذلك —
ممتعة بمضامينها ومعانيها وتفاعل مقاصدها ،
مع مقاصد القرآن ، أن يختلط بها ما ليس
منها ، من سائر أقوالنا البشرية .

مع السيوطي في تناسق الدرر

تضمن كتاب (تناسق الدرر في تناسب
السور) للسيوطي — رحمه الله — منهجا
جامعا ، له قواعد ثابتة لبيان إعجاز
القرآن ، والانتفاع به في تفسير حقائق
العلم ، وقوانين الوجود تفسيراً لا يترك وجها
من وجوه الحقيقة إلا تضمنه وعمل
بمقتضاها ، فإذا الأحكام التي نستخلصها
منه ، لازمة لمعالجة كل مشكلات الإنسان
على اتصال حياته في الدنيا إلى
الآخرة . (١١٨)

فقد بين السيوطي رحمه الله أن ترتيب
القرآن في سوره ثم ترتيب السور في

المصحف ، يقوم على قانون عظيم ، أساسه
تقديم العام على الخاص ، والكلي على الجزئي

مصادقاً لقوله تعالى : « كتاب أحكمت
آياته ثم فصلت »

١ : هود

وقضية الترتيب ، هي صميم معرفة
الإنسان ووجوده ، وملتقى صلاتنا جميعا ،
بكل حقائق العلوم ، على تنوع أحوالنا
بالنسبة لاكتشافنا إياها أو عجزنا عن
الوصول إليها — بالنسبة لتفاعلنا النظري
معها أو تطبيقنا لحقائقها ، في الواقع العلمي
للحياة .

فالعلوم الرياضية جميعا ، أساسها
الترتيب .

ولولا الترتيب ما تيسر لنا بيان الحقائق
وتفسيرها ، فضلا عن اتفاقنا على حقائقها
الثابتة ، وأصولها المتوارثة .

والترتيب يقوم عليه بناء الكون والحياة ،
وتتصل به معالم الوجود البشري ، بين سائر
مخلوقات الله تعالى .

بل إن الترتيب هو الأساس الذي
يكشف لنا كل الحدود الفاصلة بين الإعجاز
في خلق الله ووحيه ، والعجز في صناعات
البشر ، ومتجاتهم ، وعلومهم ، وسائر
أنماط بيانهم اللغوي والحسابي .

إن أكبر ما يزهى به البشر في صناعاتهم
وفنونهم وسائر أنماط تقدمهم الحضاري ،
ينقصه الترتيب الصحيح ، إذا قسناه بترتيب

الله سبحانه وتعالى ، للعام والخاص ، والكلي والجزئي ، في خلقه ووحيه .

وسنرى أن السيوطي — رحمه الله — قد حدثنا عن ترتيب آيات القرآن وسوره ، من حيث معانيها ومقاصدها ، التي تكون مجردة في ذاكرة الإنسان .

ومع ذلك فإن هناك أصولا علمية على أكبر قدر من الأهمية ، تكمن في الصلة الوثيقة بين عدد المواضع لكل جملة أو كلمة أو حرف ، في الآيات والسور وبين ترتيب هذه المفردات في القرآن كله .

بل إن هناك أصولا علمية عظيمة الأهمية ، تبين لنا أن للقرآن إعجازا في ترتيب آياته على مستوى نزولها متفرقة ، يتبعه ترتيب معجز ، على مستوى جمع آياته في سورة .

ثم إن هناك ترتيبا قرآنيا معجزا على مستوى الكلمات ، التي تجمعها أصول لغوية واحدة ، ولكنها متفرقة المواضع في آيات وسور كثيرة ، يتبعه ترتيب آخر على مستوى الحروف وعملها في تكوين الكلمات أو الربط بينها ، يتبعها ترتيب ثالث على مستوى الجمل التي تتعدد مواضعها في الآيات الكثيرة ، بينما كل جملة منها واحدة ، من حيث نصها ، كثيرة في صلاتها المتجددة ، بمواضعها ، وترتيبها المحتوى على حكمة بالغة ، وإعجاز لا ريب فيه .

ثم إن هناك إعجازا ، في الترابط بين هذه الطبقات الكثيرة ، في الترتيب القرآني ، وبين مدلولاتها العملية — المناسبة لها في واقع الوجود كله (١١٩) .

لم يتكلم السيوطي ، عن هذه الحقائق العملية جميعا ، ولكنه فتح لنا أبوابها ، حيث قدم لنا قانونه العلمي ، الذي عرضه بقوله إن القاعدة التي استقر عليها القرآن ان كل سورة تفصيل لإجمال ما قبلها ، وشرح له ، وإطنا ب لإيجازه .

وقد استقر معي ذلك في غالب سور القرآن طويلها وقصيرها .

وسورة البقرة ، قد اشتملت على جميع مجملات الفاتحة فقولہ (١٢٠) « الحمد لله » تفصيله جاء في سورة البقرة ، من الأمر بالذكر في عدة آيات ، ومن الدعاء في قوله :

« أجيب دعوة الداع إذا دعان »

البقرة : ١٨٦

وفي قوله : « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا »

البقرة : ٢٨٦

وفي قوله : « فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون »

البقرة : ١٥٢

أما قوله في سورة الفاتحة : « رب العالمين » فقد جاء تفصيله في سورة البقرة بقوله تعالى : « اعبدوا ربكم الذي خلقكم

والذين من قبلكم لعلكم تتقون »

٢١ : البقرة

وقوله : « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة »

٣٠ : البقرة

ويبين لنا السيوطي وجه المناسبة في ذلك قائلا لقد افتتح الله سورة البقرة بقصة خلق آدم ، الذي هو مبدأ البشر ، وهو أشرف الأنواع من العالمين ، وفي هذا شرح لإجمال « رب العالمين » وقوله في الفاتحة « الرحمن الرحيم » قد أشار إليه بقوله في سورة البقرة « فتأب علىكم إنه هو التواب الرحيم »

٥٤ : البقرة

ثم في قصة إبراهيم ، لما سأل الرزق للمؤمنين خاصة ، إذ قال الله حكاية عن ذلك ، « وارزق أهله من الثمرات من آمن » وقال الله سبحانه « ومن كفر فأمتعه قليلا »

١٢٦ : البقرة

وذلك لكونه هو الرحمن ، ومن ذلك ما وقع في قصة بني إسرائيل « ثم عففونا عنكم »

٥٢ : البقرة

ومنه قوله تعالى : « لا إله إلا هو الرحمن الرحيم »

١٦٣ : البقرة

وقوله : « واعف عنا واغفر لنا وارحمنا »

٢٨٦ : البقرة

وذلك من شرح قوله في الفاتحة « الرحمن

الرحيم »

٣ : الفاتحة

أما قوله في الفاتحة « مالك يوم الدين »

٤ : الفاتحة

فمن تفصيله في البقرة ، ما وقع من ذكر يوم القيامة ، في عدة مواضع ، ومنها قوله « وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله »

٢٨٤ : البقرة

فالدين في الفاتحة : والحساب (في البقرة)

وقوله في الفاتحة « إياك نعبد » مجمل شامل لجميع أنواع الشريعة الفرعية وقد فصلت في البقرة أبلغ تفصيل ، فذكر فيها الطهارة ، والحیض ، والصلاة ، والاستقبال ، وطهارة المكان ، والجماعة وصلاة الخوف ، وصلاة الجمع والعید ، والزكاة بأنواعها ، كالنبات والمعادن والاعتكاف ، والصوم وأنواع الصدقات والبر والحج ، والعمرة ، والبيع ، والإجارة ، والميراث ، والوصية ، والوديعة ، والنكاح ، والصداق ، والطلاق ، والخلع ، والرجعة ، والإيلاء ، والعدة ، والرضاع ، والنفقات ، والقصاص ، والديات ، وقتال البغاة ، والردة ، والأشربة ، والجهاد ، والأطعمة ، والذبائح ، والإيمان ، والنذور ، والقضاء والشهادات والعق .

إلى آخر الفاتحة .

٦ : الفاتحة

فهذا ما ظهر لي ، والله أعلم بأسرار كتابه وقد واصل السيوطي تأكيد قانونه الذي اكتشفه ، في ترتيب القرآن ، وهو أن الكلي يسبق الجزئي ، والعام يسبق الخاص ، حيث استنبط دلائل ذلك ، في كل سور القرآن من أول الفاتحة إلى آخر (الناس) .

ولعلنا لحظنا من قبل ، كيف ربط السيوطي ، بين ترتيب القرآن وبين السنة والإجماع ، مما يجعل لقانونه في الترتيب ، صفة عملية تبين لنا هيمنة الوحي الإلهي من قرآن وسنة ، على الوجود البشري ، وهو موصول بما وصله الله به ، من أسباب المعرفة ، وحقائق الوجود .

فأهم ما نفيده من هذا الفتح العلمي الكبير ، أن نجعل الوحي الإلهي إماما لكل أفكارنا ، وأقوالنا وأعمالنا ، وبذلك نرتب علومنا ترتيبا صحيحا ، فنترك منها ما لا نفع فيه ، ونحرص على ما ينفعنا ، وينفع الناس كافة .

من الدراسات المعاصرة في حقائق الإعجاز :

كان الدكتور محمد أحمد الغمراوي ، ظاهرة رائعة في فهم الإعجاز القرآني ، وربطه بمبدولاته العملية ، في خلق الله تعالى (١٢١)

ثم يبين السيوطي ، أن هذه أهم أبواب الشريعة كلها ، مذكورة في سورة البقرة تفصيلا لقوله تعالى في سورة الفاتحة « إياك نعبد » أما قوله تعالى « وإياك نستعين » فهو شامل لعلم الأخلاق ، وقد ذكر منها في البقرة الجمل الغفير ، من التوبة ، والصبر ، والشكر ، والمرض ، والتفويض ، والذكر ، والمراقبة ، والخوف ، وإلانة القول .

وقوله في الفاتحة « اهدنا الصراط المستقيم »

٦ : الفاتحة

من تفصيله ما وقع في البقرة ، من ذكر طريق الأنبياء ، ومن حاد عنهم ولهذا ذكر في الكعبة ، أنها قبله إبراهيم ، فهي من صراط الذين أنعم الله عليهم ، وقد حاد عنها المشركون ، ولم يثبتوا على دين إبراهيم ، وهو الإسلام ولذلك قال في قصتها « يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم »

١٤٢ : البقرة

ثم قال سبحانه « ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك »

١٤٥ : البقرة

ثم أخيرا يهدي الله الذين آمنوا إلى الصراط المستقيم ، حيث قال : « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم »

٢١٣ : البقرة

فكانت هاتان الآيتان ، تفصيلا لما أجمل من قوله تعالى « اهدنا الصراط المستقيم »

تثبت من تجارب متعددة ، في ظروف محدودة وواضحة .

ثم يبين لنا الدكتور الغمراوي — رحمه الله — أن هذا الدور في جمع حقائق العلم ، له ما يشبهه في علوم الدين .

وهو يعني بذلك (دور جمع الحديث من طرق متعددة ، للاستيثاق من صحتها ولترتيبها في مراتبها ، فالحدث لا بد له أن يستوثق من صحة نسبة الحديث ، الى الرسول صلوات الله عليه ، لأنه سيبنى عليها في دينه) .

ثم يربط بين القرآن والسنة والعلوم الكونية فيقول :

واتفاق الروح والطريقة ، عند علماء الدين الأولين ، ثم عند علماء الطبيعة المحدثين ، مع اختلاف الزمن واستقلال كل عن كل دليل عملي على أن الطريقة العلمية ، هي طريقة قرآنية ينبغي أن يأنس إليها ، ويقبل نتائجها رجل الدين ، وإن الطريقة القرآنية في النظر العلمي ، هي الطريقة العلمية ، وينبغي أن يأنس إليها ويقبل نتائجها رجل العلم .

وكلام الدكتور الغمراوي — هنا — عن الطريقة القرآنية مع أنه كان يتكلم عن جمع السنة وجمع أدلة العلم ، أساسه أن القرآن نزلت آياته متفرقة ، ثم جمعت بعد أن حفظها الصحابة آية آية ، فتواتر لديهم العلم ، بهذه الآيات ، والعمل بها ، والتأكد

وقد ناقش كثيرا ، من أقوال المفسرين القدماء ، ثم بين أنهم تقدموا في فهم حقائق الوحي ، بمقدار ما تلقوا من التفسير عن النبي ﷺ ، فلما بلغ الناس مبلغ العلم المتصل بآيات الله الكونية ، اتصلت حقائق العلم اليقينية ، بدلالاتها السابقة ، كما جاء بها القرآن فصدقها الحقائق العلمية ، التي أثبتت وطبقت تطبيقا عمليا في حياة الناس .

فهو يتحدث عن أدوار النظر العلمي فيقول :

الدور الأول : في النظر العلمي هو دور جمع الحقائق للتجربة والملاحظة ولا بد فيه من الاستيثاق من صحة الوقائع ، لأن هذه الوقائع سيبنى عليها العلم بناء ، فلا بد من التأكد من متانة الأساس قبل إقامة البناء .

وصحة الوقائع ، يستوثق بها عن طريق تكرار الملاحظة ، في نفس الظروف . هذا التكرار ، إما أن يكون على يد المشاهد الأول ، الذي شاهد الواقعة ، لأول مرة ، يكرر هو التجربة الملاحظة ، ليتأكد بنفسه ، من صحة الواقعة ، قبل أن يذيعها على الناس .

ولما أن يكون التكرار على يد غير المشاهد الأول ، من العلماء للتثبت من صحة الواقعة ، إذا خامرهم ما يدعو الى الشك فيها ، أو للبناء عليها ، في أبحاثهم ، فكل واقعة من الوقائع العلمية ، لا بد أن

من الله ، كما يقول الله تعالى : « قل إنما أُنذركم بالوحي » . .

٤٥ : الأنبياء

ويقول الله تعالى : « وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى »

٣ — د : النجم

كل ذلك قد دفع الغمراوي — رحمه الله — إلى أن ينتهي إلى المنهج القرآني في إثبات العلم اليقيني، بعد أن بدأ كلامه عن طريقة رجال السنة ، في تدوينها والاستيثاق من صحة نسبتها إلى النبي ﷺ ، وأنهم قد سبقوا رجال العلم المحدثين ، في وضع المنهج السديد ، للاستيثاق من حقائق الكون والحياة .

فهكذا يكون الدكتور الغمراوي ، قد ربط بين أصول اليقين في الإعجاز الإلهي في الخلق ، وفي الوحي .

وهكذا يكون قد ربط بين آيات الله القرآنية ، باعتبارها هي كلام الله المقروء وبين آيات الله الكونية ، باعتبارها كلام الله ، الذي تقوم عليه حياتنا العملية ، ومصالحنا الدنيوية ، وما تنتهي إليه دنيانا من حقائق الآخرة ، التي جاء بها القرآن ، ثم ربط بين ذلك كله ، وبين السنة المطهرة ، باعتبارها هي الوحي التالي للقرآن ، بهدف البيان القولي له ، والتطبيق العلمي لحقائقه .

وبذلك نفهم أن الله قد جمع لنا العلم في القرآن ، وجمال تطبيقه في الكون ، وأسلوب تطبيقه في السنة .

من النتائج العملية لتطبيق القرآن في واقع الحياة ، حيث تحولوا به من عدد قليل من الرجال المشردين المطاردين المستضعفين ، إلى أعظم قوة وضعت العالم كله ، أمام نور القرآن .

فلما كانت السنة ، هي الوحي الثاني بعد القرآن ، وكان طريقها هو طريق التلقي والحفظ عن النبي ﷺ ، فقد ربط الغمراوي بينها وبين الوحي القرآني ، من خلال نظريته السابقة ثم تحدث عن الدور الثاني من أدوار النظر العملي فقال : الدور الثاني : هو دور المشاهدة ، تجمع الوقائع ، لكن هذه الوقائع ، إن كانت من أسباب واحدة ، لا بد أن تكون ناشئة عن قانون طبيعي واحد ، أو إذا شئت عن سنة من سنن الله واحدة .

والعلم يرمي من وراء مشاهداته ، إلى الوصول إلى تلك القوانين ، أو هذه السنن ، فالوقائع المجموعة وإن كانت مهمة في ذاتها ، لأنها حقائق جزئية تزداد أهميتها كثيرا ، لأنها السلم الذي يوصل إلى القوانين الفطرية ، أو الحقائق الكلية التي كان من آثارها تلك الوقائع الفردية ، أو إذا شئت ، التي من صورها تلك الحقائق الجزئية (١٢٢)

وبعد أن انتهينا من هذا القدر من كلام الغمراوي — رحمه الله — يهمننا أن نربط في هذا السياق ، بين حقيقتين أساسيتين : وقد نزل من القرآن ما يصفها بأنها وحي

ونستنتج من هذا كله حقيقتين :
الحقيقة الأولى :

هي أن المسلمين الأوائل ، حين تيقنوا من صحة نسبة الحديث النبوي ، إلى النبي ﷺ ، فقد سبقوا في وضع المنهج العلمي ، الذي انتهى إليه العلماء المتأخرون ، في إثبات الحقائق العلمية التي استخلصوها من سنة الله في هذا الكون ، كما أبدعه ، وخلقنا ، وجعلنا نعيش فيه .

الحقيقة الثانية :

هي أن القرآن في تركيبه ، يقوم على ثبات نصوصه ، من حرف أن كلمة ، أو جملة أقل من آية ، أو آية بتمامها ، فلا تبديل لهذه النصوص .

ثم يقوم مع ذلك على مجالات لحركة كل نوع من هذه النصوص ، في مواضعه التي تتجدد في كل موضع منها ، صلته بسياقه من القرآن كله .

فالثبات والحركة ، في كثير من القرآن أو قليله ، أصلا من أصول اليقين العلمي ، جاء بهما القرآن في تكوينه ، ليكون فيهما تدريب عملي ، على استنباط العلوم اليقينية من الكون والحياة ، اللذين جعل الله لهما تركيبا قائما على نفس النظام السابق الذكر ، في تركيب القرآن .

ذلك أن الله ، جعل كل جزء من أجزاء الكون والحياة ، ثابتا على نوعه ، مهما تتكاثر مواضع هذا النوع أو غيره ، في

مجالات تكاثره ووجوده ، بين سائر مخلوقات الله تعالى .

فالثبات والحركة في القرآن ، يجعلان تطبيقه في السنة ، متفقا مع حقائق الوجود كله ، فلا يتنافر أي قول أو عمل ، أو تقرير ، للنبي ﷺ ، مع السنن ، التي فطر الله عليها خلقه .

يقول الله تعالى : « وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون » . وتتصل الآيات حتى يقول الله تعالى : « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذابين » « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » .

ويقول الله تعالى : « يريد الله لبيّن لمكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم » .

٢٦ : النساء
فهذه الآيات ، تبين لنا أن الله يأمرنا بطاعته وطاعة رسوله ، وأن القرآن والسنة فيهما بيان لسنن الكون الذي نعيش فيه ، وأن الله قد جمع الناس في كل زمان ومكان ، على حقائق واحدة لا اختلاف فيها ، وإن تنوعت أوامر الله ونواهيه بما يناسب أحوال الناس ، من حيث تقدمهم وتأخرهم ، في الوصول إلى حقائق وحي الله وخلقته .

ثم يربط الدكتور الغمراوي رحمه الله ، بين حقائق العبادة التي أمرنا الله بها وحقائق العلم ، كما أودعه الله في سننه الكونية .

يدل عليه اسمه — وحدة من الكهربائية السالبة الخاصة ، ولكنها في مجموعها تكافئ بالضبط ، ما تحمل النواة من كهربية موجبة ، أي أن كل نواة في ذرة عنصر تحمل من شحنات أو وحدات الكهربية الموجبة ، قدر عدد الكهريات التي حوفا (١٢٣) .

وهكذا يبين لنا الدكتور الغمراوي رحمه الله ، أن العبادات التي أمرنا الله بها ، لها اتفاق وانسجام تركيبى ، مع سنن الكون الذي أحيانا الله في رحابه ...

وتنتهي هذه الملاحظات العظيمة الأهمية للدكتور الغمراوي — رحمه الله — لنصل — معا — إلى أن هناك حقيقة تركيبية في كلمات القرآن ، ثم في كلمات السنة ، إذ هو متفق مع الطواف بين العبادات إذ يؤكد لنا أن له ظهيرا ، في تركيب الوحي من قرآن وسنة ، (١٢٤) .. ذلك أننا لا ننظر في أي كلمة قرآنية إلا وحوفا وسط متجدد ، أينما نمضي معها في مواضعها المتعددة ، ثم إن كل كلمة في الحديث النبوي ، ماثلة لكلمة قرآنية ، لها مواضع متجددة في الأحاديث الكثيرة التي نجدتها في سياقها ، لتضيف إلى معاني القرآن ، معاني جديدة دائما . (١٢٥)

بل اننا لنشهد إذا أمعنا في النظر إلى الوحيين من قرآن وسنة ، أن كلمات السنة تطوف حول كلمات القرآن .

(فلننظر — مثلا — الى كلمة القمر في بعض مواضعه القرآنية ، وعددها ستة وعشرون موضعا :

ولقد طبق الدكتور الغمراوي ، هذه الحقيقة — على الطواف حول الكعبة في الحج ، أو في تحية المسجد عند دخول الحرم المكي بصفة خاصة ، فربط بين هذه العبادات ، وبين نظام المجموعة الشمسية ، (فالأقمار تدور فيها أو تطوف حول كواكبها ، فالقمر يدور حول الأرض ، وأقمار المشتري تدور حول المشتري ، والأرض وأخواتها من السيارات التي تدور وأقمارها حول الشمس دورانا متصلا ، يختلف حقا باختلاف كتلة السيار وبعده من الشمس ، ولكن مهما يكن الاختلاف في الكيف والمدار ، فالدوران أو الطواف ، حول الشمس واقع من كل سيار .

وقد بين علم الفلك الحديث ، مبلغ انتشار ظاهرة : الطواف ، هذه بين الكواكب فرادى وجماعات وعوالم .

فإذا تركنا العالم الفلكي جانبا ، ونزلنا إلى العلم ، الذري وجدنا الأمر أعجب وأغرب ، أو هكذا يخيل إلى من يستثير الدقيق من تعجبه ، أكثر مما يستثير الجليل .

ثم يقول : والعلماء المحدثون يشبهون الذرة بالمجموعة الشمسية ، فهي كلها فراغ تتوسطه نقطة مادية ، يتمركز فيها ثقل الذرة ، ووزنها ، تسمى نواة الذرة .

ويدور حوفا في ذلك الفراغ العظيم بالنسبة لها ، عدد من الكهريات . أخف كثيرا من النواة ، كل كهريب — كما قد

١ — « فالتق الإصباح وجعل الليل سكنا
والشمس والقمر حسبانا »

٩٦ : الأنعام

٢ — « والشمس والقمر والنجوم
مسخرات بأمره »

٥٤ : الأعراف

٣ — « هو الذي جعل الشمس ضياء
والقمر نورا »

٥ : يونس

٤ — « وسخر الشمس والقمر كل يجري
لأجل مسمى »

٢ : الرعد

٥ — « ألم تر أن الله يسجد له من في
السموات ومن في الأرض والشمس
والقمر »

١٨ : الحج

إننا حيث تدبرنا كلمة القمر في مواضعها
الخمس السابقة ، فوجدناها متجددة
الأوساط دائما ، فإنما نكتشف — معا —
طواف المتعدد من الكلمات حول المفرد منها
في القرآن كله . مع طواف كلمات السنة
حول كلمات القرآن .

فإنما نظرت في أي كلمة نظرة خاصة
بها ، فقد انكشف لك تفردا وتجدد حركتها
بكل سياق تجدها به ، وكأن ما حولها من
الكلمات يطوف بها ، مهما تنتقل مع
الكلمة — التي أنت مرتبط بها ، في
مواضعها الكثيرة .

فالوحدة جاذبة للكثرة دائما ، في تركيب
القرآن العظيم .

والقرآن العظيم بجملته وتفصيله ، جاذب
للسنة ، بجملتها وتفصيلها .

١ — ولقد مرت بنا كلمة القمر ، بأول
المواضع الخمسة التي رصدناها بكل موضع
منها ، وقد كان ذلك بسورة الأنعام فإذا
القمر له حساب مع الشمس « والشمس
والقمر حسبانا »

٩٦ : الأنعام

٢ — ثم انطلقنا معها إلى موضعها الجديد ،
بسورة الأعراف ، فوجدنا القمر مسخرا مع
الشمس والنجوم « مسخرات بأمره »

٥٤ : الأعراف

٣ — ثم انطلقنا إلى موضع ثالث لكلمة
القمر فإذا هو نور ، بينا الشمس ضياء
« جعل الشمس ضياء والقمر نورا »

٥ : يونس

٤ — وفي الموضع الرابع وجدنا الشمس في
جريانها « كل يجري لأجل مسمى » .

٢ : الرعد

٥ — وفي الموضع الخامس ، وصلنا مع
كلمة القمر إلى حقيقة جديدة ، هي أن
القمر ساجد لله تعالى .

« ألم تر أن الله يسجد له من في
السموات ومن في الأرض والشمس
والقمر » .

إن هذا التجدد في الصلة ، بين كل
كلمة في القرآن ، وبين أي سياق تجدها فيه

يؤكد لنا أن الكلمة القرآنية ، تجذب حولها الكلمات التي تحيط بها ، فيما يشبه طواف الكواكب والأقمار حول نجومها . (١٢٦)

وما يزيد هذه الظاهرة ، وضوحا ، وتأكيذا أن أي كلمة في الحديث النبوي مماثلة لكلمة قرآنية ، فإنها تجدد لنا في مواضعها من الأحاديث الكثيرة التي نجدها بها ، وجوها أخرى من الحقائق ، غير التي وجدناها متصلة بها في القرآن .

فلنمض مع كلمة القمر كما نجدها بالمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي

١ — الشمس والقمر آية منه صغيرة ترونها . (١٢٧)

٢ — الشمس والقمر مكوران يوم القيامة . (١٢٨)

٣ — إذا خسفت الشمس والقمر فصلوا . (١٢٩)

٤ — أول من يدخل الجنة مثل القمر ليلة البدر . (١٣٠)

٥ — نظر الى القمر فقال يا عائشة استعيزي بالله من شر هذا ، إنه هو الغاسق إذا وقب . (١٣١)

١ — ففي الموضع الأول ، يبين لنا النبي أن الشمس والقمر آية واحدة ، لأنها تتصل في معرفتنا اتصالا واحدا .

٢ — أما في الموضع الثاني ، فقد تجددت الحقيقة ، مع تجدد الموضع ، فعلمنا أن الشمس والقمر يكوران يوم القيامة ، أي

يفصلان عن مكانهما في الدنيا .

٣ — ثم جاء الموضع الثالث عن الخوف .

٤ — والموضع الرابع عن جمال الذين يدخلون الجنة .

٥ — والموضع الخامس عن الربط بين القمر وبين تفسير النبي ﷺ ، لقوله تعالى : « ومن شر غاسق إذا وقب » ... أي شر القمر إذا ذهب نوره ، وبذلك نعلم أن الشر في المخلوقات كامن في توقفها عن أداء النعم التي جعلها الله فيها ، لأجل معلوم ، ثم يأتي أوان الحساب على هذه النعم ، فتكون وبالا على من لم يتق الله فيها .

والقمر هو الغاسق ، أي هو المظلم وإذا وقب ، أي إذا اختفى نوره ، حين ينتهي دوره الذي حدده الله (بقاء الدنيا) فعند ذلك تقيد حرية الإنسان ، ويؤخذ بذنوبه . إن هناك تجددا في مواضع كلمات الحديث النبوي ، يأتي تابعا للنظام المماثل له في القرآن ، ومنسقا معه ، بحيث نجد في كل من هذين الوجهين ، شيئا جديدا أو دائما ، بالنسبة للوحي الآخر ، ولكنه مترابط معه ، في مدلوله العام ، وملازم له في حقائقه ، وتفصيلها .

وهذا كله معادل موضوعي ، للطواف ، في الكون والحياة ، بل هو أصل عملي له ، في الوحي بنوعيه .

النفع الدائم والانتفاع المستمر ، لكل الحاجات المتعلقة به على اتصال الدنيا ، وانتهائها إلى الآخرة .

وكل صناعات البشر ، عاجزة أن تجد لها بناء مماثلا لهذه الأوصاف السابقة ، حتى لا يضيع الناس جهودهم في المراحل المتباعدة ، التي تثبت عليهم العجز ألف مرة ، قبل أن يتحقق لهم شيء من القدرة على الوصول إلى بعض ما يطمحون إليه ، من التقدم نحو أهدافهم .

وقد يظن أحد أننا نطلب هذه المطالب من الإنسان ، مع أنها شيء يفوق إمكانياته ، ولا يتفق مع تكوينه ، الذي توافقه المعاناة ، حتى يشعر بعدها بقيمة النجاح ، وثمرة التقدم .

والحقيقة أننا لا نتحدث عن هذه الأمور إلا لنبين ، أن الإنسان ليس لها وإنما هو عبد الله ، فلا يضرو ، أن يظهر ضعفه ، في جنب قدرة ربه ، وقلة علم البشر ، بالنسبة لعلم الله ، الذي لا بداية له ولا نهاية ، والذي لا يخفى عليه صغير لدقته وضآلته ، ولا يفوته كبير لسعته وكثرته .

وليس معنى ذلك أن الإنسان لم يصل إلى الكثير مما يسعى إليه ، من أنواع التقدم العلمي ، والحضاري ، والصناعي .

ولكن معناه أن الإنسان ، لا يصل إلى تحقيق أحلامه ، إلا بعد أن يثبت على نفسه الإخفاق ، والتفاوت في مراحل الوصول ،

بل أن تركيب الوحي وترتيبه ، يحمل معه توثيقا ذاتيا بصحة نصوص الوحي الإلهي ، فيشهد بعضها بصدق بعض ، ويؤكد بعضها بعضا .

فلا عجب بعد هذا كله ، أن يكون الطواف في العبادة ، انسجاما مع حقائق الوحي وحقائق الخلق .

ورحم الله هذا العالم الجليل الدكتور محمد أحمد الغمراوي ، على ما كشف لنا من هذه الحقيقة الرائعة ، التي تصل لنا بين أصول الثبات والحركة . بكل ما فيها من الإعجاز الإلهي في الخلق والوحي .

ولقد بين لنا هذا العالم الفذ رحمه الله عظمة السنة ، وعظمة علومها وكيف جعلها الله مصاحبة للقرآن وحمية الارتباط به ، لذلك فقد اختتمت هذه الفصول للدكتور الغمراوي^(١٣٢) .. بتفسير للآيات الكونية ، يجمع بين القرآن والسنة ، وحقائق العلم الثابتة التي توافرت أدلة ثبوتها ، وتم العمل بها ، والانتفاع بنعمة الله فيها بكل مكان وزمان .^(١٣٣)

مع السبع المثاني :

كل كلام البشر ، ومصطلحات علومهم ، عاجزة أن تجد لها تركيبا جامعا ، يتم فيه التحكم في كل أجزائها ، بحيث يكون كل جزء منها ثابتا على مبناه ومعناه ، متجدد الحركة ، بقدر مواضعه في ثنايا الكلام ، ومرتبيا بأفضل ترتيب ، يتحقق معه

بين نكوص إلى الوراء ، ومحاولة للنهوض ، من كبوة بعد أخرى ، ثم يصل بعد هذا كله إلى بعض ما يريد .

أما الإعجاز الإلهي ، كما يتجلى في وحي الله وخلقه ، فهو نور تام ، وبناء ثابت ، متكامل في أصالته ، متجدد في حركته ، وتكاثر عطائه ، مع تقدم دائب في أنواع تربيته ، بحيث يفاجئنا باكتشافاتنا العلمية ، بعد أن نكون قد مارسناها ، ممارسة عملية دائمة ، منذ وجد الإنسان ، في هذه

الحياة ، حتى يهتدي في وقت متأخر جدا ، إلى معرفة شيء من أسرار نفسه ، وأسرار الكون الذي أحياه الله فيه ، وأسرار الوحي الإلهي ، الذي يسبقنا دائما ، إلى بيان كل حقيقة ، والتحذير من كل وهم ..

بل لقد جعل الله آياته ، رسما بيانيا ، لآياته الكونية .

وجعل السنة النبوية ، همزة نور ، بين الإنسان ، وبين آيات الله القرآنية ، وآياته الكونية .

يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحییکم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون » .

٢٤ : الأنفال

وواضح أن هذه الآية في عمومها ، تدعونا إلى الاستجابة للوحيين من قرآن وسنة ، وتبين أن حياتنا لا تتم إلا بذلك .

ولكن قول الله تعالى :

« واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » إنما هو من المجمل الذي تفسره لنا السنة .

فهناك قاعدة جميلة ، أسأل الله أن يزيد فهم العلماء لها ، حتى ينشروها بين الناس ، فينفع الله بها من يشاء منهم .

تلك القاعدة ، هي أنه ما من كلمة قرآنية ، إلا وهي ثابتة على نصها ، مهما تكثر مواضعها بالقرآن كله ، مع تجدد صلاتها بهذه المواضع ، وترتيبها المعجز فيها .

ثم إذا أنت انطلقت مع الكلمة ذاتها إلى السنة ، وصلتك بوجوه من العلم ، زائدة على ما في القرآن .

(فانظر في كلمة « المرء ») في قوله تعالى :

١ — « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون » .

٢٤ : الأنفال

٢ — « يوم ينظر المرء ما قدمت يداه » .
٤٠ : النبأ

٣ — « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه » .

٣٤ : عبس

فهذه المواضع لكلمة المرء تبين لنا اجمالا أن الحب الدنيوي ، بمعناه المحدود ، لا يستطيع أن يثبت أمام أهوال الآخرة ، إلا

للمتقين الذين سيجعل لهم الرحمن ودا .
ثم نواصل النظر في بعض المواضع ،
الخاصة بكلمة المرء ، كما جاءت في السنة .

- ١ — ثلاث من كن فيه وجد حلاوة
الايان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما
سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن
يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله
منه ، كما يكره أن يلقى في النار . (١٣٤)
- ٢ — المرء مع من أحب . (١٣٥)
- ٣ — السمع والطاعة على المرء المسلم
فيما أحب وكره . (١٣٦)

لقد كانت القضية منذ بدايتها القرآنية ،
هي قضية الحب الإنساني بين الدنيا
والآخرة .

فها نحن نجد الحديث النبوي ، بعد أن
نظرنا إليه من زاوية كلمة واحدة ، هي نفس
الكلمة التي كنا معها في القرآن ، يواصل
الحركة في ذات الاتجاه القرآني مع التنويع
والتجديد .

وهذا المنهج نفسه ، نجد أن النبي ﷺ يقول
عن فاتحة الكتاب :

هي هذه السورة ، وهي السبع المثاني
والقرآن العظيم الذي أعطيت . (١٣٧)
ولولا هذا ما علمنا أن الفاتحة هي
المقصودة بقوله تعالى :

« ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن
العظيم » .

٨٧ : الحجر

ولولا هذان معا — ما فهمنا أن قوله
تعالى « وبيننا فوقكم سبعا شدادا » ..
يحمل معه المنهج في بناء الأكوان ، على
مقتضى نظم القرآن .

ذلك أن ذاكرتنا الإنسانية ، متفاوتة في
درجات قدرتها على رؤية الأشياء وفهمها ،
ولكنها لا تستطيع أبدا أن تستوعب شيئا
يخرج عما يشبه الجملة — أو الكلمة ، أو
الحرف ، في النظم القرآني فلنعد إلى
التركيب القرآنية السبعة ، لنرى كيف
تحمل لنا معها أنواع النظم لمناهج البحث في
كل العلوم .

أولا : الآية القرآنية المتعددة المواضع :
مثل قوله تعالى : « فبأي آلاء ربكما
تكذبان » .

جاءت بتامها في واحد وثلاثين موضعا
من سورة الرحمن ، فارتبطت بسياقها من كل
موضع ، بباب جديد ، بين أبواب العلم في
القرآن كله .

يقول الله تعالى : « والأرض وضعها
للأنعام . فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام .

والحب ذو العصف والريحان »

١ — « فبأي آلاء ربكما تكذبان » خلق
الإنسان من صلصال كالفخار وخلق
الجان من مارج من نار »

٢ — « فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

« رب المشرقين ورب المغربين »

٣ — « فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

« مرج البحرين يلتقيان * بينهما
برزخ لا يبغيان »

٤ — « فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

« يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » .

٥ — « فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

فهذه المواضع الخمسة ، من مواضع
هذه الآية « فبأي آلاء ربكما تكذبان »
قد تجددت ارتباطاتها فيما بينها ، مع ترتيب
المعاني المستخلصة من ذلك ، على نحو
معجز ، لا مثيل له في كلام البشر .

١ — فقد ارتبطت في أول هذه
المواضع ، بالتعقيب على ثلاث آيات عن
وضع الأرض ، وإثمارها ، حتى تكون صالحة
للحياة .

٢ — ثم جاءت بعد ذلك تعقيبا على
خلق الله تعالى ، الجنس البشري

٣ — ثم جاءت في موضعها الثالث ،
للتعقيب على بيان اتجاهات الشروق
والغروب .

٤ — بينما جاءت في موضعها الرابع
للتعقيب على كشف الحقيقة العلمية الخاصة
بوجود حاجز بين الماء المالح والماء العذب ،
لذا تلاقت مياه الأنهار ومياه البحار ، وجرى
كل منهما في مجراه .

٥ — ثم اختتمت هذه المواضع الخمسة
بقوله تعالى :

« فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

وقد تضمن هذا الحتام ، تعقيب هذه
الآية ، على اخراج اللؤلؤ والمرجان من البحار
والأنهار ، اذ يكثر وجودها حيث تتلاقى هذه
المياه بعضها ببعض .

فهذه المواضع المتعددة للآية السابقة ،
تحمل معها نظاما في التركيب القرآني ، يقوم
على ثلاث قواعد أساسية .

أولا : إن تثبيت قوله تعالى « فبأي آلاء
ربكما تكذبان » على نص واحد مهما تكرر
مواضعه ، جزء لا يتجزء من منهج تركيب
متكامل ، وهذا التثبيت هو أول ما نلاحظ
من أصول هذا المنهج وتطبيقاته .

ثانيا : يتصل بما سبق ، أننا وجدنا قوله
تعالى : « فبأي آلاء ربكما تكذبان »
متجدد الارتباط في سياقه من كل موضع ،
وهذه هي القاعدة التركيبية الثانية ، التي
نجدها مع كل قدر متعدد المواضع في القرآن
كله ، سواء كان حرفا ، أو كلمة ، أو
جملة ، وهذه الأنواع الثلاثة تحتوي على
كل تراكيب الكلام .

ثالثا : تتصل بالقاعدتين السابقتين ، قاعدة
أخيرة ، وهي أننا وجدنا هذه الآية المتعددة
المواضع ، تقدم لنا ترتيبا معجزا ، أساسه
الاتفاق الدائم مع ترتيب الخلق في ذاته ، وما
يتفرع عنه ، من اتصال المعرفة الإنسانية ،
بالأهم قبل المهم ، من حقائق الوجود الذي
نعيش فيه .

١ — وهكذا وجدنا أن الله وضع الأرض بموضعها ، بين سائر أجزاء الكون .

٢ — ثم جاء بعد ذلك خلق الله تعالى للإنسان .

٣ — ثم تبع هاتين الحقيقتين السابقتين ، بيان معرفتنا لشرق الشمس وغروبها ، وهذه معلومة أكبر من المعلومتين اللتين جاءتا بعدها ، ولهذا سبقناها ترتيباً .

٤ — فأما أولى المعلومتين الأخيرتين ، فهي الحاجز المانع بين مياه البحار ومياه الأنهار ، إذا تجاوزتا .

وهذه أصغر مما سبق ، ولهذا جاء ترتيبها بعدها .. ولكنها أكبر مما سيأتي بعدها .

٥ — أما ثانية هاتين المعلومتين الأخيرتين ، فهي خروج اللؤلؤ والمرجان من جوف المياه .

وواضح أن تقارب مياه البحار والأنهار ، يشكل حقيقة أكبر من خروج اللؤلؤ من باطنها .

وعلى هذا تم الترتيب المعجز ، في المواضع الخمسة لقوله تعالى : « فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

وسرى أن الثبيت ، وتجدد الصلات ، والترتيب ، تعمل جميعاً ، في بيان القرآن المعجز ، لكل ما تعددت مواضعه من القرآن .. غير أن كل قدر من القرآن كآلية أو الجملة — التي هي أصغر من آية ،

يتكون من أجزاء أصغر من كالكلمات والحروف .

(فهذه القواعد الثلاث السابقة ، ملازمة لكل شيء من ذلك ، كلما تعددت مواضعه .

ومع هذا كله ، فهناك حقيقة تركيبية أخرى ، غير ما تعددت مواضعه من الآيات وأجزائها .

وتلك هي التفرد في الموضع ومن ذلك :
٤ — الآية القرآنية ذات الموضع الواحد : وهذا النوع الجديد من التراكيب القرآنية السبعة ، التي نحن بصدد بيانها ، هو الذي يقوم عليه أكثر آيات القرآن مثل قوله تعالى :

« والأرض وضعها للأنام » « فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام » « والحب ذو العصف والريحان »

١٠ — ١١ — ١٢ : الرحمن وأمثال هذه الآيات ، التي تنفرد كل آية منها بموضعها ، في القرآن كله ، تربطنا بالمعاني القرآنية ، ربطاً منظماً ، بحيث نعلم دائماً ، أن الله هو الذي ينعم علينا بهذه المعاني ، وأنه لا سبيل إلى مثلها إلا منه وحده لا شريك له .

(فوضع الأرض سابق ، لمن أسكنهم الله فيها) .
(والفاكهة تسبق النخل ، لأنه فرع من فروعها) .

(والحب ذو العصف هو الذي يغرس ،
 فيثمر منه الريحان ، وهو في أصله اللغوي ،
 كل ما كان أخضر يانعا من النبات ، وإن
 كان الشائع بيننا أنه هو ما كان عطرا منه ،
 ولهذا ركب الله هذه الآية ، تركيبا حيويا ،
 يبين لنا استمرار النمو في الحياة ، من الغرس
 إلى الإثمار ، ولو قيل (والريحان والحب ذو
 العصف) لانعكس الأمر ، فانتهدت الصورة
 إلى الجفاف بعد الإثمار حيث الكلام عن
 بدء خلق الإنسان وعمارته للأرض وليس
 كذلك المجال هنا .

ثم تأتينا السنة فتبين لنا لماذا خص
 النخل ، بالذكر هنا .

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي
 ﷺ قال : (مثل المؤمن مثل النخلة ، ما
 أخذت منها من شيء نفعت) (١٣٨)

ومهما تكن الآية القرآنية متعددة
 المواضع ، أو ذات موضع واحد ، فإن —
 أجزاءها من جملة — أصغر منها ، أو
 كلمة ، أو حرف ، تقوم على الثبات من
 حيث النص ، مع التجدد في ارتباطاتها بما
 نجدتها به ، من المواضع ، ومع الترتيب
 المعجز .

وهكذا نصل إلى هذا النوع الجديد ،
 من التراكيب القرآنية السبعة .

٣ — الجملة المتعددة المواضع :

وهي كل جملة تكون أصغر من الآية ،
 ولا بد أن تتعدد مواضعها حتى تتميز بذاتها

من حيث التركيب :

وذلك مثل قوله تعالى :

« وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن
 الإنسان لظلوم كفار »

٣٤ : إبراهيم

وقوله تعالى : « وإن تعدوا نعمة الله لا
 تحصوها إن الله لَغفور رحيم » .

١٨ : النحل

فهذا القدر الذي تحته خط ، قد جاء في
 الآيتين السابقتين من سورة إبراهيم وبعدها
 سورة النحل ، على أساس ترتيب السور في
 المصحف .

ونلاحظ أن هذه جملة — واحدة ، من
 حيث نصها ، وإن اتصلت في سياقها من
 كل موضع ، بجديد من أبواب العلم .

والترتيب المعجز واضح كذلك ، لأن
 ظلم الإنسان وكفره ، يتسع لكل الأحوال
 المناسبة ، لهاتين الحالتين عند البشر ، ابتداء
 من أعظم الظلم والكفر كما هو حال
 المشركين ، وانتهاء بكفر النعم أو بذلها في
 الظلم ، بأي وجه من الوجوه .

فإذا وقع الإنسان في ذلك ، وهذه هي
 الحالة الغالبة عليه ، ازدادت حاجته إلى رحمة
 الله ومغفرته .

فلهذا جاء ترتيب هذه الجملة ، في
 مواضعها ، مناسبا ، لهذه الحقيقة
 الموضوعية ، كما في حياة البشر .

وتريدنا السنة بيانا لهذه الحقيقة ، عن ما

جاء في الحديث .

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : (إن الرجل ليحیی يوم القيامة ، بعمل لو وضع على جبل لأثقله ، فتقوم النعمة من نعم الله ، فتكاد تستنفذ ذلك كله ، لولا ما يتفضل الله به من رحمته) . (١٣٩)

ثم جاء بعده (التكذيب) في الموضع الثاني لهذه الكلمة السابقة ، كما هو في آية سورة الرحمن .

وأخيرا جاء التعجب من لا يؤمن بهذا القرآن ، وأجزأه كلها مرتبة هذا الترتيب المعجز . ومع مواضع الكلمة الثانية من الآية التي نحن بصدها ، وهذه الكلمة هي كلمة (آلاء) .

١ — « فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون » .

٦٩ : الأعراف

٢ — « فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين » .

٧٤ : الأعراف

٣ — « فبأي آلاء ربك تتماهى » . (١٤٠)

٥٥ : النجم

٤ — « فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

سورة الرحمن بمواضعها من الآية ١٣ الى الآية ٧٧

ولذا نظرنا نظرة جامعة للمواضع الأربعة لكلمة (آلاء) رأينا القواعد السابقة كلها متحققة في نصها ، وحركته المتجددة ، وترتيبه المعجز .

فالفلاح ، هو المعنى الذي تقدم في الترتيب ، لأنه عام يتسع لأهم حاجات الإنسان في حياته وآخرته .

٢ — ثم تبعه معنى جزئي ، فيه النهي عن الإفساد في الأرض .

٣ — ثم تبع ذلك التعجب من يتماهى ، بعد

٤ — الكلمة القرآنية المتعددة المواضع :

١ — « فبأي آلاء ربك تتماهى » .

٥٥ : النجم

٢ — « فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

(سورة الرحمن بمواضعها من الآية ١٣ إلى الآية ٧٧)

٣ — « فبأي حديث بعده يؤمنون » .

٥٠ : المرسلات

تأمل هذا التوزيع لكلمة (فبأي) تجدها . في ارتباط أفقي بآية سورة الرحمن « فبأي آلاء ربكما تكذبان » . وبالأيتين الأخيرتين من سورة النجم وسورة المرسلات ، طالما أنت تتلو هذه الآيات ، تلاوة متصلة ، بموضعها الخاص بسورة واحدة . ولكن حين تنظر لهذه الكلمة بمواضعها الثلاثة ، تجدها في ارتباط رأسي بهذه المواضع . فهناك (التماهى) وهو الجدل ، وقد جاء هذا المعنى بالموضع الأول لهذه الكلمة ، لأنه معنى يدل على أن الغالب عليه هو شعور داخلي في نفس الذي يتماهى .

ما سبق من إجمال حاجات الإنسان في عمومها وخصوصها ، واتساع آلاء الله ، لكل ذلك .

٤ — وأخيرا ختم الله هذه المواضع ، بالتعجب من التكذيب بآلاء الله ، بعد التعجب من القمارى ، على نحو ما سبق بيانه .

وهذا كله ترتيب معجز .

أما الكلمة الثالثة من كلمات هذه الآية فهي (ربكما) وهذه مواضعها .

١ — « قال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين » .

٢٠ : الأعراف

٢ — « قال فمن ربكما ياموسى » .

٤٩ : طه

٣ — « فبأي آلاء ربكما تكذبان » .
سورة الرحمن بمواضعها من الآية ١٣ للآية ٧٧ .

إن كلمة ربكما بالرفع .. ثم كلمة ربكما بالجر ، قد جاءت ، ارتباطاتها بهذه المواضع الثلاثة في تشكيل موافق لبيان نعم الله ، في واقعها ، وتسلسلها التاريخي ، من حيث الإنعام بالجنة ، حتى أخرجت حواء آدم منها ، بمتابعتها للشيطان ، ثم تأتى بعد ذلك قصة موسى لبيان فصل من فصول الهداية الإلهية ، ثم تبقى نعمة الله باقية ، مع هذا كله على الإنس والجن . (١٤١)

٥ — الكلمة القرآنية ذات الموضوع الواحد :

وذلك مثل كلمة (تكذبان) .

وهذه الكلمة جاءت بموضع واحد ، هو موضعها في آخر الكلمات المكونة لقوله تعالى : « فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

ومع تعدد مواضع هذه الآية بتمامها ، إلا أن هذه الكلمة من كلماتها ، لا موضع لها في القرآن كله ، خارج حدود قوله تعالى : « فبأي آلاء ربكما تكذبان » فتعدد المواضع متعلق بهذه الآيات بتمامها ، أما النظر في مواضع كلماتها فقد تبين معه أن كلمة (تكذبان) لها موضع واحد ، هو موضع ارتباطها بها .

وهذا النوع من الكلمات ، ككل ما تنفرد مواضعه من آيات القرآن ، وأجزائها يربطنا بالمعاني القرآنية ربطا أفقيا متواسلا . أما الذي تتعدد مواضعه من الآيات وأجزائها ، فهو يربطنا بمشاهد أخرى ، تبدو رأسية لأنها تصلنا بالأعماق الداخلية للقرآن ، والأغوار البعيدة في بحار نوره الإلهي .

وهناك كلمات تأتى بموضع واحد ، وفي آية غير متعددة المواضع مثل كلمة (الصمد) في قوله تعالى : « الله الصمد » فالموضع الواحد ، يعلمنا الوصل بين الكلمة وسياقها ، والمواضع المتعددة تزيد على ذلك ، أنها تعلمنا الفصل وما يرتبط به من امتداد الحركة ، وتجدد المشاهد .

٦ — الحروف القرآنية المتعددة المواضع :

١ — إياك نعبد وإياك نستعين

٢ — غير المغضوب عليهم ولا الضالين

٥ — ٧ : الفاتحة

إن واو العطف ، حرف واحد ثابت على نصه ، ثم هو متجدد ، في ارتباطه بالآيتين السابقتين ، ثم هو مرتب في سياقه بكل من هذين الموضعين .

ويتضح لنا هذا كله بالنظر في الترتيب ، حيث تقدمت العبادة والاستعانة ، وفيهما معا ، كل حقائق الدين من توحيد لله وإخلاص العبادة له وحده ، والاستعانة به على كل خير ، ودعائه لرفع كل شر .

بينما جاءت البراءة ممن غضب الله عليهم ، ومن الضالين ، لخروجهم على هذا النهج السابق فكان لا بد من هذا الترتيب . (ومن يواصل النظر في المواضع الخاصة بواو العطف ، حتى يصل إلى أوائل سورة ص وسورة ق وسورة القلم) فإنه يتبين له المنهج التركيبي الخاص بالحروف إذا كانت متفردة المواضع .

٧ — الحروف القرآنية المتفردة

المواضع :

ص القرآن ذي الذكر

١ : ص

ق القرآن المجيد

١ : ق

ن والقلم وما يسطرون

١ : القلم

ان نظرة واحدة إلى فواتح السور الثلاثة ،

كما هي في مواضعها هذه تبين لنا أن كل حرف منها ، له موضع واحد بينها جميعا .

ثم يتبين لنا فوق ذلك ، ان لكل حرف منها عملا جديدا ينفرد به في موضعه . ثم يتبين لنا أخيرا أن هناك زيادة مطردة في عمل هذه الحروف بمواضعها الثلاثة في أوائل (سورة ص ثم سورة ق ثم سورة القلم)

ومع النظر في هذه الزيادة يتبين لنا الترتيب المعجز .

فلقد وجدنا واو العطف مجاورة لهذه الحروف الثلاثة وهي ص — ق — ن .

(وليس هذا صدفة ولكنه بيان عملي لتفرد كل حرف من هذه الحروف ، بموضعه الخاص به .)

ثم وجدنا الحرف (ص) قد أدى عملا واحدا هو إظهاره لنصه ، وإفصاحه عن ذاته . فهذا الحرف لم يدخل في تركيب أي كلمة ، من كلمات الآية التي جاء في أولها .

أما الحرف (ق) فقد أدى عملا جديدا فوق كونه جاءنا بتصنيفه بين الحروف ، هذا العمل هو دخوله بين الحروف المكونة لكلمة (القرآن) .

وهذا واضح في قوله تعالى « ق والقرآن المجيد » فهكذا يزداد العمل مع زيادة المواضع لهذا النوع من الحروف .

ثم ننظر في الحرف (ن) فنجد أنه يقدم لنا تصنيفه بين الحروف ، مشفوعا بزيادة العمل ، ولكنها زيادة من نوع آخر .

وهذا واضح في قوله تعالى : « ن والقلم وما يسطرون » فحرف النون ، قد جاء مستقلا بذاته ، في أول هذه الآية ثم جاء باعتباره علامة رفع ، في الفعل المضارع (يسطرون) .

وهذا عمل نحوي ، يضاف إلى العمل الصرفي الذي سبق به الحرف ق . وترتيب العمل النحوي ، بعد العمل الصرفي ، مناسب لحركة التقدم في البناء اللغوي ، حيث يتم بناء الكلمات ابتداء ، ثم تأتي بعد ذلك الحاجة إلى الإعراب والتقيد بقواعد النحو .

السبع المثاني تحتوي على مناهج البحث في كل العلوم :

إن السبع المثاني كما سبق أن تعرفنا عليها تحمل معها كل مناهج البحث في كل العلوم ، مهما تختلف أحوال وصولنا إليها .

فلا أحد يستطيع أن يبحث في أي علم من العلوم ، على مستوى مكوناته الدقيقة ، إلا إذا بحث في الكون والحياة عن الحقائق المتصلة بما يشبه حروف اللغة وأعني بذلك الذرات أو الخلايا أو المكونات الوراثية. ثم إن البحث العلمي ، في هذا الاطار لا يخرج عن اتجاهين أساسيين .

أولهما الحرف القرآني ذو الموضوع الواحد والبحث العلمي في الذرة أو الخلية إن العلماء يبحثون بأي خلية في ذاتها أو ذرة في ذاتها بحثا خاصا بها لا يحتاجون معه

إلى مفارقتها عند البحث ، وهذا يتفق من حيث منهج البحث ، مع تعرفنا على الحرف القرآني ، في الموضوع الواحد .

وثانيهما : الحرف القرآني في المواضيع المتعددة

والبحث العلمي في ذرات وخلايا مختلفة وهناك نوع آخر من البحث العلمي في الذرات والخلايا المختلفة من حيث حركة التكاثر واختلاف الأنواع .

وهذا يتفق من حيث منهج البحث ، مع حالتنا ونحن نتعرف على الحرف القرآني المتعدد المواضيع .

فهكذا ينتهي البحث العلمي في المكونات الدقيقة للأشياء وأجزائها المتناهية في الصغر ، وتستوعبه أحوال نظرنا في الحروف القرآنية ، من حيث تركيبها الذي يجمع بين النظر في مواضيع آحاد ، أو النظر في مواضيع كثيرة .

أما البحث العلمي ، في مركبات يحمل كل نوع منها ، صفة الفرد في مجتمعه ، فله في تراكيب القرآن اتجاهان آخران أولهما الكلمة القرآنية في الموضوع الواحد .

والبحث العلمي عن كل فرد في مجتمعه : وندخل الآن مع ذكر الكلمة القرآنية في الموضوع الواحد ، إلى مجال آخر من مجالات البحث العلمي هو البحث في الأفراد ، التي يرتبط كل فرد منها بمجتمعه .

فهناك حالة البحث العلمي ، الذي يجعل العلماء يواصلون بحوثهم في فرد بذاته ،

مثل سمكة معينة ، أو شجرة بذاتها ، أو إنسان له حالة خاصة ، تدعو إلى تركيز البحث ، عن حقيقتها المتعلقة بشخصه .

وهذه الحالة من حالات البحث العلمي ، تتفق مع حالتنا ونحن ننظر في الكلمات القرآنية التي جعل الله كل كلمة منها ، توجد بموضع واحد في القرآن كله .

وثانيها : الكلمة القرآنية في المواضع المتعددة والبحث العلمي عن ظاهرة واحدة بمجتمعات مختلفة

وفي أحوال كثيرة ، يرتبط البحث العلمي بظواهر واحدة في نوعها ، ولكنها تنتشر في مجتمعات كثيرة ، ويعمل في رصدها العلماء المتخصصون في كل العلوم .

فالذين يعملون في العلوم البيولوجية أو الفسيولوجية أو علوم الفلك ، وكثير غيرهم قد يجمعهم البحث العلمي ، حول ظاهرة واحدة من نوع واحد ، ولكن كثرة انتشارها في مجالات كثيرة في الحياة ، يجعلهم جميعا ، مشتركين في البحوث المتعلقة بها .

وهذا أمر تعلمنا حقائقه ، الكلمات القرآنية ذات المواضع المتعددة .

وهكذا تدخل في اطار مواضع الحروف والكلمات القرآنية كل مناهج البحث العلمي على مستوى الأجزاء والمكونات الدقيقة ، ثم على مستوى الأفراد ، سواء كانت البحوث خاصة أو عامة .

كما جاءت في تركيب القرآن ، وبذلك نكون قد استفدنا بأربعة أنواع من السبع المثاني ، ولا يبقى بعد

ذلك إلا مناهج البحث العلمي المتعلقة بالمجتمعات ولها ثلاثة اتجاهات

أولها الجملة القرآنية المتعددة المواضع والبحث العلمي في مجتمعات أصغر مرتبطة بمجتمعات أكبر

لقد رأينا كيف تتعلق الجملة القرآنية ، التي هي أصغر من آية كاملة بمواضع متعددة من الآيات .

وعلمنا أنه لولا كثرة مواضع هذا النوع من الجمل ، ما استطعنا أن نحدد معرفتنا به .

ذلك أن الجملة من حيث النوع ، تكون مندمجة بالآية التي نجدها بها ، لأن الآية جملة أكبر من أجزائها .

فلو أننا نظرنا إلى أي جملة في حدود آية واحدة ما استطعنا ان نخصها بمعرفة متميزة بحيث نتعامل معها تعاملًا يتناسب مع كونها تركيبا جديدا بين تراكيب القرآن .

فهذه الحقائق كلها ، تصدق على كل البحوث العلمية ، التي تدرس أحوال المجتمعات المماثلة لذلك ، على مستوى الإنسان ، وسائر الأحياء ، وكل أنواع الخلق في السماء والأرض والماء والهواء ، طالما كان هناك مجتمع أصغر ، مرتبط بمجتمع أكبر ، وتحتم على الباحثين في الحقائق العلمية ، أن ينتقلوا معه في مجالات وجوده الكثيرة .

الواحد والبحث العلمي في مجتمعات أكبر محتوية على مجتمعات أصغر :

ولعلنا نتذكر أننا منذ تركنا البحث في
الجزئيات ثم في الأفراد ، وتعلق ذلك بمواضع
الحروف والكلمات القرآنية ، دخلنا في
البحوث الخاصة بالمجتمعات .

فمن أهم ما يلفت النظر في البحوث
الخاصة بالمجتمعات ، أن التراكيب القرآنية
جعلها الله قائمة على استيعاب كل أنواع
الصلات ، بين ما هو أصغر وما هو أكبر ،
كما رأينا في الجملة القرآنية المتعددة المواضع .

وقد دخلنا الآن في نوع جديد من
البحوث ، الخاصة بالمجتمعات ، التي تكون
أكبر وتحتوي على مجتمعات أصغر .

وهذا النوع من البحث العلمي ، يحدده
لنا التركيب القرآني الخاص بالآية التي نبحثها
بموضع واحد ، وهذه هي أكثر آيات القرآن
كما علمنا من قبل .

والذي يهمننا الآن ، هو أن النظر
بالمراصد إلى قطاعات من النجوم والكواكب
والأقمار ، وهذا يدخل في البحث عن صلة ما
هو أصغر بما هو أكبر ، قد حمل معه نوعا
آخر من البحث العلمي ، هو البحث عن
احتواء مجتمع أكبر لمجتمع أصغر .

ذلك أن علماء الفلك ، حين يرون
قطاعات ذات أحوال مختلفة من حيث
بعدها أو قربها من الأرض ، ومن حيث

فقد كان علماء الفلك — مثلا —
يبحثون بمراصد بسيطة ليعلموا أن هناك
عددا من النجوم والكواكب والأقمار غير ما
يراه الإنسان بعينه في حدود شمسنا التي
تشرق صباحا وتغرب ليلا ، وأرضنا التي
نسير عليها بأقدامنا أو بوسائل مواصلتنا ،
وقمرنا الذي نراه بأعيننا المجردة في الليالي
المناسبة لظهوره .

ولكن الشمس والأرض والقمر في البناء
الكوني ، بمثابة جملة متعددة المواضع ، في
البناء القرآني !!

والدليل على ذلك ، أن علماء الفلك
حينما تقدمت صناعة المراصد ، أصبح
بإمكانهم أن يتأكدوا من وجود مجموعات
شمسية محتوية على الكثير من المشاهد ، التي
تجمع بين وجود الكثير من نوع الشمس
والأرض والقمر ، في مواقع وجودها ، وحركتها
في الكون وفي حدود ما تستطيع المراصد
الحديثة أن ترى .

وقد أدى هذا النوع من البحث
العلمي ، إلى نتائج علمية كثيرة ، كشفت
الكثير من أسرار الأرض والسماء .

وهذا كله لا يخرج من حدود التركيب
الخاص بالجملة القرآنية ، ذات المواضع
المتعددة ، بحقائقها التي سبق بيان شيء
منها .

وثانيتها : الآية القرآنية ذات الموضع

أحجامها ، وقد اندمجت فيما هو أكبر منها مثل المجموعة الشمسية مثلاً ، فإن هذا نفسه ، يبين لهم أن هناك ما يسمى المجموعة الشمسية التي تحتوي على أجزائها .

وهذا هو نفس نظام الآية القرآنية التي نجدها بموضع واحد ، مع أن أجزائها المتعلقة بها موجودة في آيات أخرى ، بنسب متفرقة ، من حيث عدد المواضع وطول المجالات ، التي تتحرك فيها ، إلى غير ذلك من الأمور ، التي تتصل بهذه الحقيقة ، والتي تربط بين التركيب القرآني ، والتركيب الكوني ، لنعرف وحدة المنهج ، الذي يقوم عليه الإعجاز الإلهي في الخلق والوحي .

ثالثها : الآية القرآنية المتعددة المواضع والبحث العلمي عن التكاثر في كل مجتمعات الخلق

ومع ظهور التناسب بين أي مجتمع أكبر ، في احتوائه على ما هو أصغر منه ، تنتقل الآن إلى تكاثر المجتمعات في الخلق كله .

وهذه الظاهرة بكل أبعادها ، وسائر أحوالها ، تحتوي عليها وتوجه البحوث العلمية الخاصة بها ، كل آية قرآنية متعددة المواضع ، فالقرآن حين يتلو آياته لنحصل على معانيها ، فنحن في المنهج المعنوي أما حين ننظر في تراكيبه فنحن في المنهج التركيبي ، الذي يرسم لنا الخطوط البيانية ، لكل أصول البحث العلمي (١٤٣)

والآيات القرآنية المتعددة المواضع ، تحتوي على أجزاء كالحروف ، وأفراد كال كلمات ، ومجتمعات أصغر كالجمل المتعددة المواضع ، ثم نرى هذا النوع من الآيات يتحرك بكل محتوياته في مواضعه المتعددة .

ومرة أخرى نتذكر معا ، أن كل آية قرآنية سواء كانت مفردة الموضع ، أو كانت متعددة المواضع ، فإن أجزائها ومكوناتها تتنوع مواضعها ، في آيات أخرى ، من حيث الكم والكيف ، ونقصد بالكم عدد المواضع ، وكميات الحركة فيها .

ونقصد بالكيف ، المعاني التي نحصل عليها من النظر ، في أنواع الترابط بين هذا كله فهذه الصفات كلها ، تحمل معها مناهج البحث في حركة كل المجتمعات ، في سائر المخلوقات ، مثل حركتها بأجزائها وحركتها في إجمالها .

وإذا كنا قد ضربنا أمثلة كثيرة ، من علم الفلك ، مع أن الكلام هنا يتسع لكل العلوم ، فإنه مما يتفق من ذلك في حالتنا هذه ، نظام المجموعات الشمسية ، التي تتحرك في عمومها وخصوصها وإجمالها وتفصيلها ، في مواقع حركتها ، التي قدرها الله لكل شيء يدخل في هذا المعنى ، وتقوم بحوثه العلمية على مثل هذا المنهج ، الذي ترسم لنا أبعاده ، الآية القرآنية المتعددة المواضع .

وبذلك يتم الربط بين التراكيب القرآنية السبعة ، وبين مناهج البحث في كل العلوم .

وواضح أن هذه التراكيب القرآنية السبعة ، تحمل معها بالرسم البياني ، والتقدير الكمي ، ومعاني اللغة ، وبيانها ، كل أصول البحث العلمي ، في العلوم جملة وتفصيلا ، بحيث لا نجد أي نوع من الأنواع التي تدخل في هذا المعنى ، إلا وهو تابع للنظم التي يقدمها لنا القرآن ، خاضع لها ، فالقرآن مع الدلالة الدائمة على الله ، مهيم على كل ما عداه .

إن كل وصل وفصل بين القرآن في قليله وكثيره ، يحمل معه الدلالة العملية ، والنظم الواقعية ، بيننا وبين الكون الذي نعيش فيه ، ومبدئه ومصيره ، وكيف خلقه الله ، ولماذا سخر لنا به كل وجوه النفع في عمومها وخصوصها .

فليس من قبيل الصدفة ، أن أخبرنا القرآن ، بحقائق تاريخية كثيرة ، قبل تحققها في الزمان والمكان .

ومن ذلك حقيقة انتصار الروم على الفرس ، فقد نزلت سورة الروم وهي تحمل معها هذه الحقيقة ، قبل حدوثها ببضع سنين كما يقول الله تعالى :

« غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفلون في بضع سنين »
٢ — ٤ الروم

والذي ينظر في مصادر التاريخ ، يجد هذه الحقيقة شاهدة بصدق القرآن فيما أخبر به قبل وقوعه بسنوات طويلة .

فقد جاء في موجز تاريخ العالم لويلز ، أن هزيمة الفرس الكبرى عند نبوي ، تمت على يد هرقل ، سنة ٦٢٧ م وقد نزلت سورة الروم قبل ذلك بنحو سبع سنوات ، أي حوالي سنة ٦٢٠ م ، والهجرة النبوية كانت سنة ٦٢٢ م .

وقد كانت وقعة بدر في السنة الثانية للهجرة ، أي قريبا جدا من تحقق نبوءة القرآن السابقة ، كما أوردتها مصادر السنة . والذي يحقق هذه الواقعة المشهورة في كتب السنة ، وفي كتب التاريخ ، التي لا تدخل في دائرة التأثير الديني ، يجد كل الحقائق الدينية مطابقة تماما ، للحقائق التاريخية (١٤٤)

وليس من قبيل الصدفة ، أن كل أنواع التقدم في كشف حقائق العلوم ، لم يعرفها الإنسان إلا بعد نزول القرآن .

ذلك أن المعرفة البشرية ، لا تستطيع أن تصلنا بالحقائق الكونية المركبة إلا في تفاوت واختلاف .

فمن أيام الفكر البدائي ، بتلذذه بالأوهام ، وابتداعه للأساطير . (١٤٥)

إلى فترات العصور الحجرية قبل التاريخ الميلادي بعشرة آلاف سنة .

كل هذا وآفة الوصول إلى الحقيقة ، هو التفسير بالهوى . (١٤٦)

ولقد صورت أساطير الاغريق ، قصة صانع كريتى اسمه (وايد لوسى) ، حاول أن ينشئ طائفة شرعية ، ولكنها سقطت ، وهوت إلى البحر .

وقد كان الحديد لا مصدر له في سنة ٢٥٠٠ ق م ، إلا النيازك التي تسقط من السماء .. وعندما بدأ مفكر قديم مثل أرسطو يفكر فيما يسمونه القضية الذرية فإن أخطائه في مثل هذا النوع من التفكير ، قد أجمع على ردها رجال التحليل الفلسفي ، كما هو مشهور ، فضلا عن انفصال جهود أرسطو في منطق الصوري ، عن جهود رسل في منطق الرياضي ، مع أنهما حقيقتان مترابطتان ، ولكن الفكر البشري ، لا يستطيع أن يتخلى عن جزئيته وتفاوته (١٤٧)

ولم يكن العلم البشري وقت نزول القرآن ، يعلم عن الحيوان المنوي شيئا سوى أنه سائل يمنح الحياة .

فماذا صنع بالفكر العلمي كله ، أول قدر من الآيات افتتح الله به نزول القرآن . اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق

الإنسان من علق

١ - ٢ : العلق

ولقد مضى وقت طويل جدا ، منذ نزول هاتين الآيتين ، حتى جاء وقت استعمال الجهر الكهربائي ، ووصل العلم البشري إلى

سر الحيوان المنوي ، الذي يصدق عليه قوله تعالى : « من علق » (١٤٨)

وقد بدأ استعمال العدسات لرؤية وتركيب الخلق ومكوناته الدقيقة — عام ١٦٧٥ م والقرآن بدأ نزوله منذ عام ٦١٠ للميلاد . والقرآن أخبرنا بمعانيه عن كل مفاتيح العلوم ، ومركبات الخلق ، في السموات والأرض ، والحيوان ، قبل اكتشاف العدسات التي أمكن بها رؤية هذه الدقائق الكونية وتراكيبها . (١٤٩)

وقد رسم لنا القرآن بنظمه المعجز رسما بيانيا ، لكل تركيب الكون الذي نعيش فيه ، قبل ظهور الفكر العلمي عند البشر بألف وخمسمائة وخمسة عشر عاما . (١٥٠)

إن الحدود الفاصلة ، بين أقوال الله وأفعاله ، وأقوال البشر وأفعالهم ، أن الكون الذي أحياهم الله في جزء صغير من أجزائه ، بعد أن خلقهم من ترابه ، هذا الكون كله ، خلقه الله بكلمة ذات حرفين ، من كلماته هي كلمة (كن) كما هي في قوله تعالى : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون * فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون »

٨٢ — ٨٣ يس

فالكون على عظمة حجمه نتيجة لكلمة واحدة ، من كلمات الله القرآنية . والكون فيه العناصر الوراثية مستعيرة من القرآن منهج نظمه وترتيب أجزائه .

ولقد جعل الله القرآن أوجز من الكون
تيسيرا .
ومع ذلك فقد جعل الله الكون ، مسيرا
بالقرآن تيسيرا .

وفيه الكيمياء متشابهة مع العناصر
الوراثية ، في ثباتها وتجدد ارتباطاتها وترتيبها
والقرآن بتركيبه وترتيبه ، تتجلى فيه هيمنة
آيات الله القرآنية ، على آياته الكونية .

والحمد لله رب العالمين . وصل اللهم على نبيك وصفوتك من الخلق أجمعين .



المواضع

(٦) وصايا ٨٨ بيوع والترمذي ٥ وصايا والنسائي وصايا وغيرهم .
وانظر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ج ٧ ص ٦٨٧ .

(١٠١) البخاري ج ٣٧ وصايا ٢ وصية ٥ أبو داود وصايا ٢ والترمذي وصايا ١
وانظر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ج ٧ ص ١٨٨

(١٠٢) الاتقان ج ٣ ص ٦٠

(١٠٣) المصدر السابق

(١٠٤) انظر الاتقان ج ٣ ص ٧٣ — قلت ولهذا الحديث شواهد في الصحيح فانظر صحيح البخاري رفاق ١٠ وصحيح مسلم زكاة ١١٦ — ١١٩

(١٠٥) انظر صحيح البخاري في ٢٥ كتاب الحج وفي ٢١ باب ما لا يلبس المهرم من الثياب .
وانظر صحيح مسلم ج ٢ ص ٨٣٥ وما بعدها أحاديث .

(١٠٦) انظر الاتقان للسيوطي ج ٣ ص ٣ ، ٤ ، ٥ .

(١٠٧) انظر لسان العرب لابن منظور ج ١ ص ١٠٠ وما بعدها .

(١٠٨) راجع ما سبق من الكلام عن التشابه ونفي التكرار عند الاسكافي والكرماني . وانظر في نهاية هذا الفصل إلى كلام السيوطي عن ترتيب السور والآيات بكتابه تناسق الدرر .

(١٠٩) انظر الاتقان للسيوطي ج ٣ ص ٤٢ وما بعدها ، وانظر كذلك موضوع السنة بين العموم والخصوص ، للأستاذ سالم الهنساوي

(٨٨) انظر كتاب الاتقان للسيوطي تحقيق أبو الفضل ابراهيم ج ١ ص ١٨ — ١٩ — ٢٠ وما بعدها .

(٨٩) انظر كتاب الاتقان للسيوطي ج ١ ص ٨٢ وما بعدها .

(٩٠) الاتقان للسيوطي ج ١ ص ١٦٤ وما بعدها .

(٩١) انظر الاتقان للسيوطي ج ١ ص ١٨٤ — ١٩٩ ، وكذلك البرهان للزركشي ج ١ ص ١٦ — ١٧ وقد جاء به أن أبا بكر بن العربي هو محمد بن عبد الله المعافري ، المعروف بابن العربي أحد فقهاء اشبيلية تولى سنة ٥٤٤ هـ

(٩٢) الاتقان للسيوطي ج ٢ ص ٢١١

(٩٣) انظر الاتقان ج ١ ص ٢٧١ وقد عزي السيوطي هذا الحديث إلى الطبراني في الكبير وقال رجال استناده ثقات وهو حديث جليل حجة .

(٩٤) المصدر نفسه وما يفهم من النوع الثاني ، من أنواع النسخ — اتصال الوحي الإلهي في الإسلام بمصدره الواحد عند كل الأنبياء أما النوع الثالث فما يفهم منه مناسبة دين الله تطویر أحوال الناس .

(٩٥) مسلم رضاء ٢٥

(٩٦) انظر مقدمة في تفسير الرسول للقرآن الكريم (تأليف محمد العفيفي) والحديث رواه الجماعة إلا البخاري .

(٩٧) الموطأ رضاء ٤ .

(٩٨) الموطأ رضاء ١٢ .

(٩٩) الاتقان ج ٣ ص ١٥ .

(١٠٠) رواه البخاري (٦) وصايا أبو داود

بكتابه (السنة المفترى عليها) ص ١٨٢ — ٢١٢
(١١٠) البخاري بيوع ٥٨ ومسلم نكاح ٤٩
(١١١) صحيح الجامع الصغير للسيوطي برقم
٦٨٠٨

(١١٢) المصدر السابق برقم ٦٨١٥
(١١٣) المقصود بالتخصيص هنا نوع من تقييد
المطلق وفي التعميم بالقرآن مع التخصيص بالسنة
قوة الالتزام وتأكيده له .

(١١٤) الاتفاق ج ٣ ص ٤٨ (والإسلام حرر
الرقيق من طباع التواكل والخضوع بأن مكن لهم
في المكاتب وفيها العمل والكفاح من أجل الحرية ،
حتى لا يكون فيها تفریط بعد ذلك

(١١٥) قلت هذا داخل في ما سبق من تخصيص
آية لآية أخرى

(١١٦) الحديث رواه البخاري في الايمان ١٧
— ١٨

(١١٧) وانظر الاتفاق ج ٤ ص ١٤٤ وما
بعدها .

(١١٨) صدر كتاب تناسق الدرر في تناسب
السور للسيوطي ص ٤

(١١٩) الترتيب القرآني متجدد الأحوال ولكنه
معجز من كل وجه ، وهو بعدد حروف القرآن ،
ثم بعدد كلماته ، ثم بعدد كل صلة بين أي قدر
منه ، وبين أي موضع منه .

(١٢٠) انظر تناسق الدرر في تناسب السور
للسيوطي ص ٧٨

(١٢١) الدكتور محمد أحمد الغمراوي من
مواليد يونيو ١٨٩٣ بمدينة زفتى بمحافظة الغربية
بمصر .

(١٢٢) الإسلام في عصر العلم للدكتور محمد
أحمد الغمراوي ص ٤٢ — ٤٣ .

(١٢٣) المرجع السابق ص ٥٦ وما بعدها .

(١٢٤) انظر إلى الوحي المحمدي للسيد رشيد

رضا في كلامه عن الأسلوب المزجي للقرآن . ص
١٤٣ .

(١٢٥) انظر إعجاز القرآن — مصطفى صادق
الرافعي ص ٢١ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٥ ،
٢٢٠ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ .

(١٢٦) انظر النبأ العظيم للشيخ محمد عبد الله
دراز ص ٢٣ .

(١٢٧) مسند أحمد ج ٤ ص ١٣ .

(١٢٨) البخاري : بدء الخلق ٤ .

(١٢٩) النسائي : كسوف ١٦ .

(١٣٠) مسند أحمد ج ٢ ص ٢٤٧ .

(١٣١) مسند أحمد ج ٦ ص ٢٠٦ ، ٢١٥ .

(١٣٢) انظر الصفحات من ١٠٨ وما بعدها في
المصدر السابق .

(١٣٣) انظر الصفحات من ٢٤٥ إلى ٢٦٠ .

(١٣٤) البخاري إيمان ٩ ، مسلم إيمان ٦٦ ،

مسند أحمد ج ٣ ص ١٠٣ ، ١٤٠ ، ١٤١ .

(١٣٥) البخاري : أدب ٩٦ مسلم بر ٦٥

(١٣٦) البخاري : أحكام ٤ مسلم امارة ٣٨

(١٣٧) الموطأ : ج ١ ص ٨٣ .

(١٣٨) صحيح الجامع الصغير للسيوطي ج ٥

ص ٢٠١ برقم ٥٧٢٤ .

(١٣٩) الترغيب والترهيب للمنذري ج ٤ ص

٣٩٨ — ٣٩٩

(١٤٠) من معاني تتارى هنا أن الله سبحانه

وتعالى ينفي التماري عن النبي ﷺ ويجعل هذا

بمثابة التعجب ممن يتارى .. وقيل المقصود به كل

من يتارى من آحاد الناس ، والتماري يأتي بمعنى

الجدل أو بمعنى الشك . انظر تفسير فتح البيان

للعامة المحقق صديق حسن خان ج ٩ ص

١٨٨ .

(١٤١) لقد انتهينا حتى الآن من بيان التركيب

المعجز للكلمات الثلاث الأولى لآية بتامها —

وبقيت كلمة واحدة ذات موضع واحد هي كلمة تكذبان

(١٤٢) سننظر في التراكيب القرآنية هنا بأسلوب جديد ، عما سبق ذلك اننا سنبدأ من الحروف ثم نصعد الى الكلمات والجمل الصغيرة ، حتى نعلو الى الآية في الموضع الواحد ، والآية في المواضع المتعددة ، لأن هذا الأسلوب أنسب لأغلب البحوث العلمية .

(١٤٣) انظر في الفصل الثاني ما جاء عن الخطائي من أصول المنهج التركيبي والمنهج المعنوي .
(١٤٤) انظر تفسير ابن كثير ص ٤٢٣ وأورد عددا من الأحاديث ، تبين كيف راهنت قریش أبا بكر ، فلما هاجر النبي إلى المدينة ، جاء مصداق النبوة القرآنية ، فانتصر الروم على الفرس وأسلم هنالك ناس كثير .
* انظر أبواب التفسير في كتب السنن .
(١٤٥) انظر الفصل الثامن عشر من كتاب

موجز تاريخ العالم لويلز ص ٤٥ وما بعدها .
(١٤٦) المصدر السابق ص ٥٤ وما بعدها .
(١٤٧) القضية الذرية يقصد بها تحليل الفكر الى أدق صورة وأثبتها ، وأنفعها كما يفعل رجال العلم المادي ، في وصولهم الى أدق أجزاء المادة .
انظر المنطق الوضعي د . زكي نجيب محمود ص ٥٧ ، وما بعدها .

(١٤٨) انظر ما كتبه الباحثة المعاصر الدكتور أحمد شوقي ابراهيم ، في هذه القضية في كتابه سنريهم آياتنا ص ٧٤ وما بعدها .
(١٤٩) انظر كتاب الوراثة — تأليف جوديث وأنوال ترجمة د . حسين فهمي فراج ص ٢٥ وما بعدها .
(١٥٠) فكر في الفرق بين سنة ٦١٠ م بدء نزول القرآن ، وعند بدء اكتشاف العدسات سنة ١٦٧٥ م

